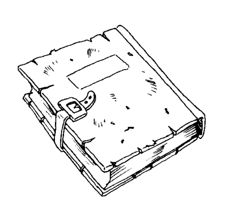


كرسي السُّلطان

الدكتور نبيل راغب





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٢٥٦٠٨ ، ٣٩٢٠٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٩٩٨/٨٨٥٤

الترقيم الدولي ٦ - ٠٣٠٨ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

رسوم : يوسف راغب

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

كرسي السُّلطان

١

وَلَمّا كانَتِ اللَّيْلَةُ التّالِيَةُ اضْطَجَعَ الْمَلِكُ شَهْرَيار مائِلاً بِمِرْفَقِهِ الأيْمَنِ عَلى الحَشِيَّةِ الحَمْراءِ الحَريرِيَّةِ ، في حينَ جَلَسَتْ شَهْرزاد أمامَهُ في أبْهَى حُلَلِها وقَدْ أشْرَقَ وَجْهُها بِابْتِسامَةٍ غامِضَةٍ زاخِرَةٍ بالإشْعاعِ وَالوَميضِ . قالَتْ :

بَلَغَني ، أيُّها الْمَلِكُ السَّعيدُ ، أنَّهُ كانَ في قَديمِ الزَّمانِ ، وَسالِفِ العَصْرِ والأوانِ ، في أرْضِ رومان ، مَلِكٌ يُقالُ لَهُ الْمَلِك يُونانَ ، ذو جُنودٍ وَبَأْسٍ وَأعْوانٍ ، وَكانَ في جَسَدِهِ بَرَصٌ قَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الأطِبّاءُ ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ شُرْبُ أدْوِيَةٍ وَلا سَفوفٌ وَلا دِهانٌ ، فَقَد اعْتادَ وَزيرُهُ هَمْدان أنْ يَسْتَدْعِيَ لَهُ الأَطِبّاءَ مِنْ كُلِّ أرْجاءِ البِلادِ ، وَبِرَغْمِ فَشَلِهِمْ في عِلاجِهِ فَإنَّهُ كانَ يُقاسِمُهُمُ الأجْرَ . فَإذا كانَ قَدْ فَشِلَ في الفَوْزِ بِيَدِ ابْنَتِهِ الأميرَةِ وَرْدشان الَّتي أصَرَّتْ عَلى رَفْضِهِ ، فَلَيْسَ أقَلَّ مِنْ أَنْ يُضاعِفَ ثَرْوَتَهُ بِانْتِهازِ كُلِّ الفُرَصِ وَالظُّروفِ وَالْمُناسَباتِ الَّتي تَطْرَأُ عَلى القَصْرِ ، مَعَ الإصْرارِ عَلى مُلاحَقَةِ وَرْدشان لَعَلَّها تُغَيِّرُ رَأيَها في

يَوْم مِنَ الأيّام وَتَقْبَلُهُ زَوْجًا لَها ، خاصَّةً وَأنَّ أباها قَرَّر أنْ يَكونَ زَوْجُ ابْنَتِه هُوَ وَلِيَّ عَهْدِهِ ما دامَ لَمْ يُرْزَقْ بابْنٍ .

كانَ هَمْدان حائرًا بَيْنَ الرَّغْبَةِ في عِلاج الْمَلِكِ يونان وَشِفائِهِ ، ورَغْبَتِهِ في أنْ يَتَزَوَّجَ ابنَةَ الْمَلك ، وَقَدْ كانَتْ تُساوِرُهُ أسْئِلَةٌ مِنْ مِثْلِ : لَوْ ماتَ الْمَلِكُ دونَ أنْ أتَزَوَّجَ ابْنَتَهُ ، هَلْ يُمْكِنُني القَفْزُ عَلى العَرْشِ دونَ تَوافُرِ شَرطِ الزَّواج ؟ وهَلْ تُصْبِحُ فُرْصَةُ إتْمام هَذِهِ الزّيجَةِ أكْبَرَ في حالَةِ شِفاءِ الْمَلِك ، بحَيْثُ تَسيرُ الأمورُ كَما أشْتَهي ؟ خاصَّةً وَأنَّ قائِدَ الجَيْشِ لَنْ يُتيحَ لي فُرْصَةَ القَفْزِ عَلى العَرْشِ إذا نَجَحَ في أنْ يَتَزَوَّجَ الأميرَةَ وَرْدشان .

كان هَمْدان قَدْ سَمِعَ عَنِ الحَكيم بُرْهان الَّذي كانَ عارِفًا بالكُتُب اليونانِيَّةِ وَالفارِسِيَّةِ وَالرّوميَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ وَالسُّريانِيَّةِ ، وَعِلْم الطِّبِّ وَالنُّجوم ، كَما كانَ عالِمًا بأُصول حِكْمَتِها وَقَواعِدِ أمورِها ، وَمَنْفَعَتِها وَضَرَرِها ، عالِمًا بِخَواصِّ النَّباتاتِ وَالحَشائِش وَالأعْشاب الْمُضِرَّةِ وَالنّافِعَةِ . لَكِنَّ هَمْدان لَمْ يَتَحَمَّسْ لاسْتِدْعائِهِ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَقاضى أجْرًا نَظيرَ عِلاجِهِ لِلنّاسِ ، فَقَدْ وَرِثَ ثَرْوَةً

كَبيرَةً عَنْ أبيهِ أغْنَتْهُ عَنْ أيِّ أجْرٍ ، فَوَهَبَ خِدْماتِهِ مَجّانًا لِلْفُقَراءِ ، وَلِذَلِكَ تَحاشاهُ الأغْنِياءُ الَّذينَ لا يثِقونَ إلا بِمَنْ يَدْفَعونَ لَهُ مَبالِغَ باهِظَةً .

وَلَكِنْ لِماذا لا يُجَرِّبُ ؟ رُبَّما كانَ في مَجيئِهِ تَحَوُّلٌ مَصيريٌّ يَجْعَلُ الأمورَ تَسيرُ عَلى هَواهُ ؛ إذْ لَوْ تَمَّ شِفاءُ الْمَلِكِ عَلى يَدَيْهِ فَرُبَّما ضَغَطَ عَلى ابْنَتِهِ لِتَتَزَوَّجَ هَمْدان ، بِحُكْمِ أنَّهُ وَزيرُهُ الَّذي اسْتَطاعَ أنْ يَجِدَ الطَّبيبَ الَّذي تَمَكَّنَ مِنْ شِفائِهِ أخيرًا .

وَأخيرًا قَرَّرَ الوَزيرُ هَمْدان أنْ يَسْتَدْعِيَ الحَكيمَ بُرْهان إلى القَصْرِ لِعِلاجِ الْمَلِكِ . وَكانَ هَمْدان عَلى اسْتِعْدادٍ لِصُنْعِ الْمُسْتَحيلِ حَتّى يَجْعَلَ زِيارَةَ الحَكيمِ بُرْهان لِلْمَلِكِ زِيارَةً عابِرَةً لا تَتَكَرَّرُ ، حَتّى لَوْ أدَّتْ إلى شِفاءِ الْمَلِكِ . وَلِكَيْ لا يُشْعِرَهُ بِأهَمِّيَّتِهِ لَمْ يَذْهَبْ بِنَفْسِهِ إلَيْهِ لاسْتِدْعائِهِ ، بَلْ أرْسَلَ إلَيْهِ أحَدَ غِلْمانِهِ . وَكانَ يَوَدُّ بِهَذا أنْ يَرْفُضَ الحَكيمُ الحُضورَ ؛ إذْ قَدْ لا يُصَدِّقُ أنَّ الْمَلِكَ أرسَلَ إلَيْهِ غُلامًا ، وَساعَتَها سَيَحِلُّ العِقابُ عَلى الغُلامِ ، وَلَيْسَ عَلى الوَزيرِ . وَراحَ الوَزيرُ يُطَمْئِنُ نَفْسَهُ وَيَحُثُّها

عَلى عَدَم استِباقِ الأحْداثِ ؛ إذْ إنَّ غَدًا لِناظِرِه قَريبٌ .

٢

جَلَسَ الوَزيرُ هَمْدان في تَأدُّب شَديدٍ عَلى مَقْعَدٍ مُواجِهٍ لِسَريرِ الْمَلِكِ يونان الَّذي رَقَدَ مُتَوَجِّعًا وَمُتَسائِلاً :

« هَلْ تَعْتَقِدُ ، يا هَمْدان ، أنَّ اللهَ سَيَمُنُّ عَلَيَّ بِالشِّفاءِ عَلى يَدَيْ هَذا الحَكيم ؟»

« عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ، يا مَوْلايَ . »

« لَمْ أعُدْ أحْتَمِلُ حَياتِيَ مَعَ هَذا البَرَصِ اللَّعينِ الَّذي يَسْتَشْري في جِلْدي وَجِسْمي بِلا رَحْمَةٍ . إنَّهُ لَعْنَةٌ حَلَّتْ بي وَلا تُريدُ أنْ تَنْقَشِعَ !»

جَلَسَ الْمَلِكُ في فِراشِهِ ، وَهُوَ يَقولُ في صَوْتٍ يَمْتَزِجُ فيه الإعْياءُ بالعِرْفانِ بالجَميلِ : « شُكْرًا لَكَ ، يا هَمْدان . بِدونِكَ لَمْ أكُنْ أعْرِفُ ماذا يُمْكِنُ أنْ أفْعَلَ . »

أرْخَى هَمْدان جُفونَهُ في ضَراعَةٍ مُتَصَوِّفَةٍ وَقالَ :

« الشُّكْرُ للهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، يا مَوْلايَ . حَفِظَكَ

اللهُ لَنا وَلِبلادِكُمْ ذُخْرًا وَعَوْنًا ، وَمَتَّعَكُمْ بالصِّحَّةِ وَالعافِيَةِ ، وَأفاءَ عَلى ابْنَتِكُمْ سُمُوّ الأميرَةِ وَرْدشان الْمُسْتَقْبَلَ الْمُشْرِقَ الْمَجيدَ وَالزَّواجَ الْمُثْمِرَ السَّعيدَ . »

ضَغَطَ هَمْدان عَلى الكَلِماتِ الأخيرَةِ في حَديثِهِ ، لَكِنْ يَبْدو أنَّ الآلامَ الَّتي اعْتَصَرَتِ الْمَلِكَ لَمْ تُمَكِّنْهُ مِن الْتِقاطِ الْمَعْنى الخَفِيِّ الَّذي يَقْصِدُهُ .

رانَ عَلى الْمَكانِ صَمْتٌ قَصيرٌ سَرْعانَ ما قَطَعَهُ إعْلانُ وُصولِ الحَكيمِ بُرْهان الَّذي دَخَلَ عَلى الْمَلِكِ يونان في أفْخَرِ ثِيابِهِ ، وَكانَ دُخولُهُ كَالصّاعِقَةِ الَّتي سَقَطَتْ عَلى أمِّ رَأسِ هَمْدان ، وأحسَّ بِشَعْرِ رَأسِهِ كَأنَّهُ يَحْتَرِقُ . لَمْ يَتَمالَكْ هَمْدان إلا أنْ يَسْألَهُ دونَ وَعْيٍ أوْ تَفْكيرٍ :

« هَلْ أرْسَلَكَ الحَكيمُ بُرْهان نِيابَةً عَنْهُ ؟ لِماذا لَمْ يَأتِ بِنَفْسِهِ ؟ هَلْ أصابَهُ مَكْروهٌ أمْ عِنْدَهُ ما يَشْغَلُهُ ؟ »

أجابَهُ الحَكيمُ بُرْهان بِثِقَةٍ : « أنا الحَكيمُ بُرْهان . بِمُجَرَّدِ أنْ بَلَغَني أمْرُ مَوْلايَ الْمَلِكِ يونان ، أجَّلْتُ كُلَّ مَشاغِلي وَكَرَّسْتُ نَفْسي لِخِدْمَتِهِ . »

وانْحَنى لِلْمَلِكِ ودَعى لَهُ بِدَوامِ العِزِّ وَالنِّعَمِ ، لكنَّ

هَمْدان قاطَعَهُ قائلاً لَهُ : « كُلُّ الأَطِبّاءِ وَالحُكَماءِ وَالفلاسفَةِ رجالٌ طاعِنونَ في السِّنِّ ، وَلِحاهُمُ البَيْضاءُ تَكادُ تُلامِسُ رُكَبَهُمْ ، لَكِنَّكَ في رَيْعانِ الشَّبابِ الَّذي لا يُمْكِنُ أَنْ يُتيحَ لَكَ العِلْمَ الوَفيرَ وَالخِبْرَةَ الكافِيَةَ . »

أجابَهُ بُرْهان في اقْتِضابٍ كَطَلَقاتِ السِّهام: « أَضِفْ عُمْري إلى عُمْرِ أبي الحَكيمِ وَالطَّبيبِ وَالفَيْلَسوفِ الَّذي ماتَ قُرْبَ المائةِ ، لِتَعْرِفَ مَدى عِلْمي وَخِبْرَتي . »

ثُمَّ اسْتَدارَ لِيُخاطِبَ الْمَلِكَ بِمُنْتَهى الثِّقَةِ وَاليَقينِ :

« أَيُّها الْمَلِكُ الكَريمُ ، بَلَغَني ما اعْتَراكَ مِنْ هَذا الَّذي في جَسَدِكَ ، وَ أَنَّ كَثيرًا مِنَ الأَطِبّاءِ لَمْ يَعْرِفوا الحيلَةَ في زَوالِهِ ، وَهَأَنَذا أُداويكَ أَيُّها الْمَلِكُ ، ولا أَسْقيكَ دَواءً وَلا أَمَسُّ جِلْدَكَ بِدِهانٍ . »

عَجِبَ الْمَلِكُ يونان مِنْ كَلامِ الحَكيمِ بُرْهان وَلَمْ يَمْلِكْ سِوى أَنْ يَسْأَلَهُ : « كَيْفَ تَفْعَلُ هَذا ؟ فَوَ اللهِ إنْ أَبْرَأْتَني أَغْنَيْتُكَ إلى وَلَدِ الولد ، وَتَكونُ نَديمي وَحَبيبي ، وَسَأَخْلَعُ عَلَيْكَ كُلَّ ما تَطْلُبُهُ ! »

كانَتْ كَلِماتُ الْمَلِكِ كَالحِرابِ الْمَسْمومَةِ في قَلْبِ

الوَزير هَمْدان الَّذي نَدمَ أشَدَّ النَّدَم عَلى استِدْعاء هَذا الشّابِّ المِغْناطيسِيِّ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ سِوى الصَّمْتِ وَالإنْصاتِ لِلْمَلِكِ الَّذي ظَلَّ يَتَساءَلُ وَكَأنَّهُ يَحْلُمُ :

« أتُبْرِئُني مِنْ هَذا المَرَضِ بلا دَواءٍ وَلا دِهانٍ ؟»

كَرَّرَ الحَكيمُ بُرْهان إجابَتَهُ بِثِقَةٍ مُتَزايِدَةٍ : « نَعَمْ أبْرِئُكَ بِلا مَشَقَّةٍ في جَسَدِكَ . »

« لَوْ فَعَلْتَ هَذا لَجَعَلْتُكَ أسْعَدَ إنْسانٍ في العالَم . »

« سَعادَتي أنْ أعالِجَكُمْ وَأنْ يَأْذَنَ الله ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، بِشِفائِكُمْ عَلى يَدَيَّ . لا أريدُ مِنْحَةً أعْظَمَ مِنْ هَذِهِ ؛ فَقَدِ اكْتَشَفْتُ أنَّ سِرَّ السَّعادَةِ في إسْعادِ الآخَرينَ . »

عَجِبَ المَلِكُ غايَةَ العَجَبِ ومَدَّ يَدَهُ لِيُرَبِّتَ كَتِفَهُ وَقَدْ كانَ جالِسًا إلى جِوارِهِ عَلى حافَةِ الفِراشِ ، وَقالَ :

« أيُّها الحَكيمُ ، في أيِّ الأوْقاتِ وَفي أيِّ الأيّامِ سَيَكونُ لي ما ذَكَرْتَهُ ؟»

« غَدًا ، يا مَوْلايَ ، سَيَكونُ كُلُّ شَيْءٍ جاهِزًا . كُلُّ ما أريدُهُ الآنَ حُجْرَةٌ صَغيرَةٌ أجَهِّزُ فيها ما ذَكَرْتُهُ لَكَ طَوالَ

اللَّيْلِ ، وَفي الصَّباحِ سَيَتِمُّ الْمُرادُ بِاسْمِ رَبِّ العِبادِ . »

أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِعْدادِ كُلِّ ما طَلَبَهُ عَلى الفَوْرِ ، وَباتَ يَحْلُمُ بِحَياةٍ جَديدَةٍ مُفْعَمَةٍ بِالصِّحَّةِ وَالعافِيَةِ وَالسَّعادَةِ .

٣

نَبا الفِراشُ بِالوَزيرِ هَمْدان ؛ فَظَلَّ يَتَقَلَّبُ فيهِ وَصورَةُ الحَكيمِ بُرْهان لا تُفارِقُ خَيالَهُ . اِسْتَعادَ أَمامَ عَيْنَيْهِ كُلَّ ما رَآهُ ، واسْتَعادَتْ أُذُناهُ كُلَّ ما سَمِعَهُ فَغَرِقَ في بِحارِ الحَيْرَةِ : ماذا كانَ يَقْصِدُ عِنْدَما قالَ لِلْمَلِكِ إِنَّهُ لا يُريدُ مِنْحَةً أَعْظَمَ مِنْ شِفائِهِ ، وَإِنَّهُ لا يَجِدُ سَعادَتَهُ إِلا في إِسْعادِ الآخَرينَ ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ صادِقًا فيما قالَ ؟ هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ هُناكَ إِنْسانٌ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ يُقَدِّمُ خِدْماتِهِ لِلنّاسِ دونَ انْتِظارِ مُقابِلٍ ، خاصَّةً إِذا كانَ مَخْدومُهُ هُوَ مَلِكَ البِلادِ نَفْسَهُ .

إِنَّهُ شابٌّ لُغْزٌ ، كُتْلَةٌ مِنَ الغُموضِ تَتَراوَحُ بَيْنَ العَبْقَرِيَّةِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تَشْفِيَ الْمَلِكَ وَبَيْنَ الدَّجَلِ الَّذي رُبَّما أَوْدَى بِحَياتِهِ . آه لَوْ يَعْرِفُ ما يَدورُ في عَقْلِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ! وَمَعَ

ذَلِكَ فَهُوَ لَمْ يَأْتِ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ وَإِنَّما جاءَ بِناءً عَلى اسْتِدْعاءٍ عاجِلٍ فَلَبّاهُ !

وَلَوْ كانَ يُخَطِّطُ بِالفِعْلِ لِما يَدورُ في عَقْلِ هَمْدان لَجاءَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، خاصَّةً وَأَنَّ مَرَضَ المَلِكِ كانَ مَعْروفًا عِنْدَ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ عَلى السَّواءِ .

انْصَرَمَ الوَقْتُ بَطيئًا وَلَمّا اقْتَرَبَ الفَجْرُ قَفَزَ هَمْدان مِنْ فِراشِهِ وَقَرَّرَ أَنْ يُواجِهَ المَجْهولَ القابِعَ في الحُجْرَةِ الَّتي وَضَعَ فيها كُتُبَهُ وَأَدْوِيَتَهُ وَعَقاقيرَهُ ، لَعَلَّهُ يَكْتَشِفُ جانِبًا مِنْ غُموضِهِ وَأَسْرارِهِ .

نَزَلَ هَمْدان بِعَباءَةِ النَّوْم البَيْضاء مُسْرِعًا إلى حُجْرَةِ بُرْهان ، فَرأى ضَوْءَ الشَّمْعَدانِ الذَّهَبِيِّ الكَبير لا يَزالُ يَتَراقَصُ وَراءَ خَصاصِ النّافِذَةِ . رابَطَ هَمْدان بِجوار النّافِذَةِ حَتّى يَرْصُدَ بُرْهان مِنْ مَكانٍ خَفِيٍّ



فَوَجَدَهُ قَدْ صَنَعَ مِنَ الأَدْوِيَةِ والعَقاقير عَجينَةً غَليظَةَ القَوام شَكَّلَ مِنْها صَوْلَجانًا وَكُرَةً صُلْبَةً كامِلَةَ الاسْتِدارَةِ لَمْ يَعْرِفْ هَمْدان مِنْ أيِّ شَيْءٍ صَنَعَها .

كانَ الإرْهاقُ واضِحًا عَلى وَجْهِ بُرْهان الَّذي اسْتَرْخى عَلى مَقْعَدٍ طَلَبًا لِلرّاحَةِ فَانْتَهَزَ

هَمْدان الفُرْصَةَ وَفَتَحَ البابَ وَدَخَلَ .

فُوجِئَ الحَكيمُ بُرْهان بِدُخولِ الوَزيرِ هَمْدان عَلَيْهِ ، فَرَدَّ تَحِيَّتَهُ في اقْتِضابٍ ، في حينَ واصَلَ هَمْدان تَمَسُّحَهُ :

« قُلْتُ لِنَفْسي لَعَلَّكَ تُريدُ شَيْئًا وَأَنْتَ سَهْرانُ طَوالَ اللَّيْلِ تَكْدَحُ مِنْ أَجْلِ شِفاءِ مَلِكِنا ، فَأَتَيْتُ لأَضَعَ نَفْسي رَهْنَ إِشارَتِكَ ! »

« لا تُتْعِبْ نَفْسَكَ ؛ فَأَنا أَحْمِلُ مَعي دائِمًا كُلَّ ما أَحْتاجُهُ . »

« أَنْتَ لا تَعْرِفُ مَبْلَغَ سَعادَةِ مَوْلانا بِمَجيئِكَ بَعْدَ أَنْ فَشِلَ أَمْهَرُ وَأَشْهَرُ الحُكَماءِ في عِلاجِهِ . »

« الطَّبيبُ يُعالِجُ ، لَكِنَّ اللهَ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، هُوَ الَّذي يَشْفي . »

ولَمْ يَسْتَطِعْ هَمْدان مَنْعَ نَفْسِهِ طَويلاً مِنْ إِلْقاءِ سُؤالِهِ الَّذي يَشْغَلُهُ فقال : « وَماذا تَنْوي ، بِإِذْنِ اللهِ ، أَنْ تَفْعَلَ بَعْدَ شِفاءِ الْمَلِكِ الَّذي لَنْ يُفَرِّطَ فيكَ وَيَتْرُكَكَ تَرْحَلُ ؟ »

« لِكُلِّ إِنْسانٍ رِسالَةٌ في الحَياةِ . وَقَدْ وَهَبْتُ نَفْسي

لِلْفُقَراءِ ، لَكِنَّ هَذا لا يَمْنَعُ أنْ أكونَ في خِدْمَةِ مَوْلانا الْمَلِكِ في أيِّ وَقْتٍ يَشاءُ . »

لَمْ يَحْظَ هَمْدان بالإجابَةِ الشّافِيَةِ الَّتي تَمَنّاها ، فَراحَ يُداوِرُ قائلاً : « أرى صَوْلَجانًا وَكُرَةً . لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّ زُجاجاتِ الأدْوِيَةِ وَالعَقاقيرِ لَها عَلاقَةٌ بِمِثْلِ هَذا الصَّوْلَجانِ وَمِثْلِ هَذِهِ الكُرَةِ !»

اِبْتَسَمَ الحَكيمُ بُرْهان وَهُوَ يَقْرَأُ ما يَدورُ في عَقْلِ هَمْدان وقالَ: « لِكُلِّ مِهْنَةٍ أسْرارُها ، وَلِكُلِّ صَنْعَةٍ خَباياها الَّتي لا يُدْرِكُها إلا أصْحابُها . فَأنا لا أفْقَهُ في السِّياسَةِ وَشُئُونِ الحُكْمِ ، كَما أنَّكَ لا تَفْقَهُ في العِلاجِ وَعُلوم الطِّبِّ ، وَمَعَ ذَلِكَ سَأشْفي غَليلَكَ ؛ فَدواءُ الْمُلوكِ يَجِبُ أنْ يَكونَ مُناسِبًا لِمَكانَتِهِمُ الرَّفيعَةِ ؛ وَلِذَلِكَ كانَ الصَّوْلَجانُ عِلاجًا مُناسِبًا لِمَوْلانا الْمَلِكِ . »

« وَمَنْ قالَ لَكَ إنَّ بِداخِلي غَليلاً مِنْ أيِّ نَوْعٍ . كُلُّ ما أتَمَنّاهُ أن أطْمَئِنَّ عَلى صِحَّةِ مَوْلانا . »

« وَهَلْ لَدَيْكَ أدْنى شَكٍّ في أنَّ مَوْلانا في يَدٍ أمينَةٍ ؟»

« أنْتَ طَبيبٌ وَتَعْلَمُ جَيِّدًا أنَّ قَلْبَ الْمُحِبِّ نَهْبٌ

لِلْهَواجِسِ وَالْمَخاوِفِ ، وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ مَدى عُمْقِ حُبّي لِمَوْلانا الْمَلِكِ وَخَوْفي عَلَيْهِ . »

« ولِماذا تَفْتَرِضُ فِيَّ عَدَمَ العِلْمِ بِذَلِكَ ؟ أَ لَيْسَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تُحِبَّ مَوْلاكَ الْمَلِكَ الَّذي تَعْمَلُ في خِدْمَتِهِ وَأَنْ تَخافَ عَلَيْهِ ؟ »

نَهَضَ هَمْدان مِنْ جَلْسَتِهِ قائِلاً وَهُوَ يَتَظاهَرُ بِالوُدِّ وَالصَّداقَةِ : « سَأَتْرُكُكَ لِتَسْتَريحَ بَعْضَ الوَقْتِ بَعْدَ العَمَلِ وَالسَّهَرِ طَوالَ اللَّيْلِ ، خاصَّةً وَأَنَّ لَدَيْكَ عَمَلاً شاقًّا في النَّهارِ ، نَرْجو أَنْ يُكَلَّلَ بِالنَّجاحِ . »

« شُكْرًا عَلى تَشْريفِكَ ؛ فَقَدْ كُنْتُ في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلى مِثْلِ هَذا التَّرْويحِ عَنِ النَّفْسِ بَعْدَ عَناءِ اللَّيْلَةِ وَكَدِّها . »

خَرَجَ هَمْدان وَقَدِ ازْدادَتْ مَخاوِفُهُ مِنْ هَذا اللُّغْزِ الَّذي يَزْدادُ تَعْقيدًا وغُموضًا كُلَّما حاوَلَ الاقْتِرابَ مِنْهُ .

٤

مَعَ سُطوعِ شَمْسِ النَّهارِ دَخَلَ الحَكيمُ بُرْهان عَلى

الْمَلِكِ ، وحَيَّاهُ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَرْكَبَ إلى الْمَيْدانِ ، فَذُهِلَ الْمَلِكُ لِطَلَبِهِ وقالَ : « عالَجَني الحُكَماءُ في الفِراشِ ، وأنْتَ تُريدُ أنْ تُعالِجَني في الْمَيْدانِ ؟»

« وَأنْ تَلْعَبَ أيْضًا ، يا مَوْلايَ، بِالكُرَةِ والصَّوْلَجانِ . »

« لَمْ أسْمَعْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ !»

تَفَجَّرَتْ يَنابيعُ السَّعادَةِ داخِلَ هَمْدان ، وَهُوَ يُتابِعُ هَذا الحِوارَ بَيْنَ الْمَلِكِ يونان وَالحَكيم بُرْهان ، فَرُبَّما انْتَهى بِطرد الحَكيم مِنَ القَصْرِ أوْ قَتْلِهِ لِمُمارَسَتِهِ النَّصْبَ وَالاحْتِيالَ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَزَحْزَحْ بُرْهان عَنْ مَوْقِفِهِ الرّاسِخِ ، وقال :

« ثِقَةُ الْمَريضِ ، يا مَوْلايَ ، بِطَبيبِهِ ضَرورَةٌ مُلِحَّةٌ لِنَجاحِ العِلاجِ ، فَإذا لَمْ أكُنْ مَحَلَّ ثِقَتِكُمْ فَلْتَأْمُروني بِمُغادَرَةِ القَصْرِ في الحالِ وَالذَّهابِ إلى حالِ سَبيلي . »

كَتَمَ هَمْدان أنْفاسَهُ انْتِظارًا لإجابَةِ الْمَلِكِ الَّذي قالَ :

« بَعْدَ كُلِّ ما مَرَرْتُ بِهِ فَإنَّني لا أمْلِكُ رَفاهِيَةَ الاخْتِيارِ ؛ فَلْتَفْعَلْ ما تُريدُ . كُلُّ ما أريدُهُ أنْ أبْرَأَ مِنْ هَذا البَرَصِ

اللَّعينِ الَّذي أحالَ حَياتي إلى جَحيمٍ مُقيم . »

نَهَضَ الْمَلكُ مِنْ فِراشِهِ وَخَرَجَ إلى قاعَةِ القَصْرِ حَيْثُ تَجَمَّعَ الأمَراءُ وَالوُزَراءُ وأرْبابُ الدَّوْلَةِ الَّذينَ هُرِعوا خَلْفَهُ إلى الْمَيْدانِ ، وَكانَ بُرْهان عَلى يَمينِهِ وَهَمْدان عَلى يَسارِهِ . وَما إنِ اسْتَقَرَّ بِهِ الجُلوسُ في الْمَيْدان ، حَتّى تَقَدَّمَ مِنْهُ بُرْهان وَناوَلَهُ الصَّوْلَجانَ وَالكُرَةَ قائِلاً لَهُ :

« خُذْ هَذا الصَّوْلَجانَ وَاقْبِضْ عَلَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَامْشِ في الْمَيْدانِ وَاضْرِبْ بِهِ هَذِهِ الكُرَةَ بِكُلِّ قُوَّتِكَ حَتّى تَعْرَقَ كَفُّكَ وَجَسَدُكَ ، عِنْدَئِذٍ يَنْفُذُ الدَّواءُ مِنْ كَفِّكَ فَيَسْري في سائِرِ جَسَدِكَ ، فَإذا عَرِقْتَ وَسَرى فيكَ الدَّواءُ فَارْجِعْ إلى قَصْرِكَ ، وَادْخُلِ الحَمّامَ وَاغْتَسِلْ وَنَمْ ، فَقَدْ بَرِئْتَ . »

تَرَدَّدَ المَلِكُ يُونان قَليلاً ، لَكِنَّهُ نَهَضَ وَأخَذَ ذَلِكَ الصَّوْلَجانَ مِنَ الحَكيمِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ بِيَدِهِ ، ثُمَّ امْتَطى صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَقَذَفَ الحَكيمُ الكُرَةَ بَعيدًا ، فَأسْرَعَ بِجَوادِهِ خَلْفَها حَتّى لَحِقَها ، وَضَرَبَها بِقُوَّةٍ وَهُوَ قابِضٌ بِكَفِّهِ عَلى مَقْبِضِ الصَّوْلَجانِ . لَمْ يَتَصَوَّرِ الْمَلِكُ أنَّهُ يَمْلِكُ مِثْلَ هَذِهِ القُوَّةِ الجامِحَةِ ، وَهُوَ الَّذي قَضى سَنَواتٍ

في الفِراشِ بلا حَوْلٍ وَلا قُوَّةٍ . وَظَلَّ الْمَلِكُ يَجْري بِجَوادِهِ ؛ وَيَضْرِبُ الكُرَةَ بالصَّوْلَجانِ حَتّى عَرِقَ كَفُّهُ وَسائِرُ بَدَنِهِ ، وَسرى فيهِ الدَّواءُ مِن القَبْضَةِ .

وَعِنْدَما تَأَكَّدَ الحَكيمُ بُرْهان مِنْ أنَّ الدَّواءَ سَرى في جَسَدِهِ ، طَلَبَ مِنَ الْمَلِكِ التَّوَقُّفَ عَنْ ضَرْبِ الكُرَةِ ، وَالرُّجوعَ إلى قَصْرِهِ ، وَدُخولَ الحَمّامِ عَلى الفَوْرِ ، فَرَجَعَ الْمَلِكُ يُونان ، وَاغْتَسَلَ كَما أرْشَدَهُ الحَكيمُ بُرْهان ، ثُمَّ مَدَّ ذِراعَهُ فَتَناوَلَ ثِيابَهُ وَارْتَداها .

خَرَجَ الْمَلِكُ مُسْرِعًا إلى غُرْفَةِ نَوْمِهِ ، وَسَرعانَ ما راحَ يَغِطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ لَمْ يَنْعَمْ بمِثلِهِ مُنْذُ سَنَواتٍ . فَلَمّا أصْبَحَ الصَّباحُ نَظَرَ إلى جَسَدِهِ فَلَمْ يجدْ فيهِ شَيْئًا مِنْ أثَرِ البَرَصِ ، وَصارَ جَسَدُهُ نَقِيًّا مِثْلَ الفِضَّةِ البَيْضاءِ ، فَفَرِحَ بِذَلِكَ غايَةَ الفَرَحِ ، واتَّسَعَ صَدْرُهُ وَانْشَرَحَ .

نَهَضَ الْمَلِكُ وَدَخَلَ الدِّيوانَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أكابِرُ الدَّوْلَةِ والحُجّابُ وَفي مُقَدِّمَتِهِمُ الوَزيرُ هَمْدان الَّذي نَظَرَ حَوْلَهُ بَحْثًا عَنْ بُرْهان فَلَمْ يَجِدْهُ. وَتَمَنَّى في نَفْسِهِ أنْ تَكونَ الأرْضُ قَدِ انْشَقَّتْ وَابْتَلَعَتْهُ . وبِمُجَرَّدِ أنْ قَبَّلَ

الْحُضورُ الأرْضَ بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ وَجلَسوا في مَعِيَّتِهِ ، تَفَحَّصَهُمُ الْمَلِكُ بِوَجْهِهِ الْمُشْرِقِ سائِلاً إيّاهم بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ رَنّانٍ :

« أيْنَ الحَكيمُ اللامِعُ الَّذي أرْسَلَهُ اللهُ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، كَيْ يَمْنَحَني عَلى يَدَيْهِ الصِّحَّةَ وَالسَّعادَةَ اللَّتَيْنِ حُرِمْتُ مِنْهُما سَنَواتٍ وَسَنَواتٍ . »

كانَتْ كَلِماتُ الْمَلِكِ طَعَناتِ خِنْجَرٍ مَسْموم في قَلْبِ هَمْدان الَّذي قالَ بِصَوْتٍ عالٍ حَتّى يَسْمَعَهُ جَميعُ الحاضِرينَ :

« لَوْلا أنَّ اللهَ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، وَفَّقَني في العُثور عَلَيْهِ لَكُنْتَ ، يا مَوْلايَ ، طَريحَ الفِراشِ حَتّى الآنَ ! »

لَكِنْ يَبْدو أنَّ الْمَلِكَ كانَ مُتَلَهِّفًا لِرُؤْيَةِ الحَكيم بُرْهان فَلَمْ يَنْتَبِهْ لِكَلِماتِ هَمْدان ، وَظَلَّتْ نَظَراتُهُ مُعلَّقَةً بِباب الدّيوانِ الَّذي سَرْعانَ ما دَخَلَ مِنْهُ بُرْهان ، وَاسْتَأْذَنَ ، فَأذِنَ لَهُ الْمَلِكُ في الدُّخولِ فَدَخَلَ .

ونَهَضَ الْمَلِكُ وَعانَقَهُ ، وَأجْلَسَهُ بِجانِبِهِ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ الخُلَعَ السَّنِيَّة ، وَإذا بِمَوائِدِ الطَّعامِ قَدْ مُدَّتْ ، فَأكَل

بِصُحْبَتِهِ ، وَظَلَّ عِنْدَهُ يُنادِمُهُ طَوالَ النَّهار ، في حينَ عَجَزَ هَمْدان عَنْ أنْ يَبْتَلِعَ لُقْمَةً واحِدَةً برَغْم رائِحَةِ الطَّعامِ الشَّهِيّ ، فَقَدْ كانَ يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأةِ كابوس لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَتَخَلَّصُ مِنْهُ . فَلَمّا أقْبَلَ اللَّيْلُ أعْطَى الْمَلِكُ الحَكيمَ ألْفَيْ دينار غَيْرَ الخُلَعِ وَالهَدايا ، وَهُوَ يَقولُ لِلْحاضِرينَ الْمُسْتَرْخينَ في ضَوْءِ الشُّموعِ :

« هَذا داواني مِنْ ظاهِرِ جَسَدي وَلَمْ يَدْهُنْ جَسَدي بدهان ، فَيَجِبُ عَلَيَّ لِهَذا الرَّجُلِ الإنْعامُ وَالإكْرامُ ، وَأنْ أتَّخِذَهُ جَليسًا وَأنيسًا مَدى الحَياةِ . »

كَان هَمْدان في أقْسَى حالاتِهِ بُؤْسًا وَضيقًا وَحُزْنًا عِنْدَما سَمِعَ هَذا ، ولَكِنَّ بُرْهان فاجَأ الجَميعَ بِقَوْلِهِ : « كَلامُ مَوْلايَ الْمَلِكِ أمْرٌ مُطاعٌ ، وَلَكِنْ فَلْيَسْمَحْ لي أنْ أقولَ ما في قَلْبي . »

اِبْتَسَمَ الْمَلِكُ وَقَدْ خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلى الجَميعِ وَقالَ :

« لَيْسَ أحَبَّ إلى قَلْبي مِنْ ذَلِكَ . »

« يا مَوْلايَ ، لَقَدْ وَهَبْتُ حَياتي لِلْفُقَراءِ وَالْمُحْتاجينَ والْمُعْوزينَ الَّذينَ وَجَدْتُ سَعادَتي الحَقيقِيَّةَ بَيْنَهُمْ . . . »

قاطَعَهُ الْمَلِكُ بِبَعْضٍ مِنَ الحَسْمِ وَالحَزْمِ قائِلاً : « وَهَلْ عَجَزْتَ عَنْ أَنْ تَجِدَ سَعَادَتَكَ مَعِي ؟ »

« أَسْتَغْفِرُ اللهَ ، يا مَوْلايَ ، فَلَيْسَتْ هُناكَ سَعادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ قُرْبِكَ ، لَكِنَّكَ ، يا مَوْلايَ ، لَسْتَ مُحْتاجًا لي احْتِياجَ الفُقَراءِ وَالبُؤَساءِ . »

« لَكِنَّني احْتَجْتُ إِلَيْكَ بِدَليلِ ما فَعَلْتَهُ مَعي بِالأَمْسِ . »

« وَأَنا سَأَكونُ تَحْتَ أَمْرِكَ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ النَّهارِ أَوِ اللَّيْلِ . لَكِنَّني إِذا عِشْتُ بِجِوارِكَ فَلَنْ يَجْرُؤَ الفُقَراءُ وَالبُؤَساءُ عَلى الوُصولِ إِلَيَّ في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، وَبِذَلِكَ أَخْسِرُ الخَيْرَ الَّذي كُنْتُ أَصْنَعُهُ وَيَمْنَحُني سَعادَةً أَعْجَزُ عَنْ وَصْفِها لأَنَّها فَريدَةٌ في نَوْعِها . »

قالَ الْمَلِكُ : « ما سَمِعْتُ مِثْلَ هَذا الكَلامِ مِنْ قَبْلُ . وَلا أَمْلِكُ الآنَ سِوى أَنْ أَزْدادَ احْتِرامًا وَحُبًّا لِهذا الشّابِّ ، وَلْيَعْتَبِرْ قَصْري بَيْتًا لَهُ ، يَأْتي إِلَيْهِ كُلَّما اشْتاقَ إِلَيْنا ، وَأَرادَ أَنْ نَهَبَ لَهُ الخُلَعَ وَالدَّنانيرَ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يُساعِدَ بِها الفُقَراءَ وَالبُؤَساءَ . »

اِبْتَسَمَ بُرْهان في سَعادَةٍ غامِرَةٍ وَسَطَ ذُهولِ الحاضِرينَ

وَقالَ : « كَرَمُ مَوْلايَ لَيْسَ في حاجَةٍ إلى بُرْهانٍ . »

ضَحِكَ الْمَلِكُ مِنْ أعْماقِ قَلْبِهِ لِلْمُفارَقَةِ الَّتي لَعِبَ بها بُرْهان عَلى اسْمِهِ ، وقالَ : « لَكِنَّنا سَنَظَلُّ دائمًا في حاجَةٍ إلى بُرْهان الحكيمِ اللامعِ . »

« وَأنا سَأظَلُّ دائمًا رَهْنَ إشارَةِ مَوْلايَ الْمَلِكِ يُونان . »

كانَ هَمْدان أسْعَدَ الحاضِرينَ لِدَرَجَةِ أنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ أذُنَيْهِ ، وَ بُرْهان يَعْتَذِرُ عَنْ عَدَمِ قَبولِ ضِيافَةِ الْمَلِكِ لَهُ . فَلَمْ يَعُدْ هُناكَ خَوْفٌ مِنْ أنْ تَقَعَ عَيْنا الأميرَةِ وردشان عَلَيْهِ ، خاصّةً وَأنَّهُ يَمْلِكُ كُلَّ قُوَى السِّحْرِ وَالجاذِبِيَّةِ الَّتي يُمْكِنُ أنْ تَأسِرَ لُبَّ أميرَةٍ جَميلَةٍ مِثْلِها ، بالإضافَةِ إلى أنَّ الطَّريقَ أصْبَحَ مَفْتوحًا وَمُشْرِقًا أمامَهُ إلى قَلْبِ الْمَلِكِ ؛ وَلِذَلِكَ عَقَدَ همْدانُ العَزْمَ عَلى أنْ يَسُدَّ الطَّريقَ إلى الأميرةِ أمامَ بُرْهان بِكُلِّ الحَواجِزِ الْمُمْكِنَةِ ؛ فَتَكْفيهِ أنَّهُ فازَ بِقَلْبِ الْمَلِكِ .

٥

جَلَسَتِ الأميرةُ وَرْدشان في شُرْفَةِ مَقْصورَتِها الرُّخامِيَّةِ

النّاصِعَةِ البَياضِ لِتَمْلأ عَيْنَيْها بِمَنْظَرِ البُسْتانِ قَبْلَ الغُروبِ .
وكانَتِ الوَصيفَةُ جُلْفدان تَجْلِسُ إلى جانِبِ سَيِّدَتِها تَرْقُبُها بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ ، خاصَّةً عِنْدَما تُطْلِقُ تَنْهيدَةً مَعَ كُلِّ هَبَّةِ نَسيم ، أوْ تَبْدو عَلى وَجْهِها الأبْيَضِ الْمَرْمَرِيِّ بَوادِرُ ابْتِسامَةٍ سَعيدَةٍ بِشِفاءِ أبيها مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ اللَّعينِ .

قالَتْ لِسَيِّدَتِها : « لَقَدْ فَكَّ اللهُ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، عُقْدَةَ مَوْلانا الْمَلِكِ وَشَفاهُ مِنَ البَرَصِ اللَّعينِ ، وَهَذِهِ بُشْرى طَيِّبَةٌ لِفَكِّ عُقْدَتِكِ وَزَواجِكِ مِنْ أَميرِ أحْلامِكِ . »

تَنَهَّدَتْ وَرْدشان مِنْ أعْماقِها وَقالَتْ : « أيْنَ هُوَ أميرُ أحْلامي هَذا ، وَأنا رَهينَةُ جَناحي في القَصْرِ ، لا أُبارِحُهُ إلا لِلنُّزْهَةِ في البُسْتانِ الَّذي يُحيطُ بِهِ الحُرّاسُ ، وَيَخافُ أنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ أيُّ شابٍّ ؟»

ضَحِكَتْ جُلْفدان في دُعابَةٍ لِسَيِّدَتِها لَعَلَّها تَضْحَكُ بِدَوْرِها وَقالَتْ : « وَهَلْ مِنَ الْمَعْقولِ أنْ تَتَزَوَّجَ سَيِّدَتي الأميرَةُ مِنْ أيِّ شابٍّ ؟»

بَدَتْ مَخايِلُ الجِدِّيَّةِ عَلى وَجْهِها الجَميلِ وَهِيَ تَقولُ : « أيُّ شابٍّ خَيْرٌ مِنْ هَذا الهَمدانِ الَّذي بَلَغَ سِنَّ الكُهولَةِ ،

وَيَظُنُّ نَفْسَهُ أميرَ أحْلامي بِرَغْمِ ثِقَلِ ظِلِّهِ الَّذي لا مَثيلَ لَهُ . »

« أنْتِ ، يا سَيِّدَتي ، لَسْتِ غايَتَهُ الْمَنْشودَةَ ، وَإنَّما وسيلَتُهُ إلى كُرْسِيِّ الْمَمْلَكَةِ بَعْدَ أنْ قَرَّرَ مَوْلانا الْمَلِكُ أنْ يكونَ زَوْجُ ابْنَتِهِ هُوَ وَلِيَّ عَهْدِهِ . »

« لَقَدْ صارَحْتُ أبي بِذَلِكَ عِنْدَما فاتَحَني في مَوْضوعِ الزَّواجِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْتَنِعْ وَاتَّهَمَني بسوءِ الظَّنِّ ، خاصَّةً وَأنَّ هَمْدانَ كانَ الوَزيرَ الْمَسْئولَ الَّذي حَمَلَ كُلَّ تَبعاتِ الْمَمْلَكَةِ وَنَهَضَ بها في أثْناءِ مَرَضِهِ . فإذا كانَ مِنْ حَقّي أنْ أرْفُضَ الزَّواجَ مِنْهُ فَإنَّ مِنْ حَقِّهِ أنْ يَحْتَفِظَ بِهِ وَزيرًا مُساعِدًا لَهُ في إدارَةِ شُئونِ الْمَمْلَكَةِ . »

« حَتّى بَعْدَ شِفاءِ مَوْلانا الْمَلِكِ بِحَمْدِ اللهِ ؟»

« إنَّ أبي لا يُمْكِنُ أنْ يَتَخَلّى في السَّرّاءِ عَمَّنْ وَقَفَ مَعَهُ في الضَّرّاءِ !»

« حَتّى لَوْ كانَ هَدَفُهُ القَفْزَ عَلى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ ؟»

« لَكِنَّني بِشَخْصي الضَّعيفِ لَنْ أجْعَلَهُ يُحَقِّقُ هَذا الهَدَفَ ؛ لأنَّني لَنْ أتزَوَّجَهُ حتّى لَوْ جَثا تَحْتَ قَدَمَيَّ . »

« لَكِنَّ مَوْلانا الْمَلِكَ مُتَعَجِّلٌ لِهَذا الزَّواج ؛ لأنَّهُ لا أحَدَ يَضْمَنُ الظُّروفَ ! »

« كانَ مَرَضُهُ السَّبَبَ وَراءَ هَذا التَّعَجُّلِ ، لَكِنْ بَعْدَ أنْ مَنَّ اللهُ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، عَلَيْهِ بِالشِّفاءِ صارَحَني بِأنَّ كُلَّ شَيْءٍ قِسْمَةٌ وَنَصيبٌ ، وَأنَّ نَصيبي سَيَأْتي إلَيَّ ! »

« وَكَيْفَ سَيَحْدُثُ هَذا وَكُلُّ الأمَراءِ وَالوُزَراءِ الَّذينَ يَدْخُلونَ القَصْرَ يَقْتَرِبونَ في السِّنِّ مِنْ مَوْلانا الْمَلِكِ ؟ »

« وَأنا بِدَوْري لَنْ أتَزَوَّجَ إلا الشّابَّ الَّذي يَسْتَطيعُ أنْ يَأسِرَ لُبّي ، وَأنْ يَتَرَبَّعَ عَلى عَرْشِ قَلْبي قَبْلَ أنْ يَتَرَبَّعَ عَلى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ . »

ارْتَسَمَتِ ابْتِسامَةٌ عَريضَةٌ غامِضَةٌ عَلى وَجْهِ جُلْفِدان فَتَساءَلَتْ وَرْدشان : « هَلْ هُناكَ ما تُخْفينَهُ عَنّي ؟ »

« ما رَأْيُ سَيِّدَتي الأميرَةِ في الحَكيمِ الَّذي عالَجَ مَوْلانا ؟ »

« ما هَذا الْمُزاحِ السَّخيفِ ، يا جُلْفِدان ؟ أ تُريدينَ أنْ أتَزَوَّجَ رَجُلاً جاوَزَ الشَّيْخوخَةَ وَأنا الَّتي رَفَضْتُ مَنْ هُوَ

عَلى أعْتابِ الكُهولَةِ ؟»

« وَمَنْ أدْراكِ بِسِنِّهِ ؟»

« وَهَلْ هُناكَ عَلى هَذِهِ الأرْضِ حَكيمٌ طَبيبٌ لَمْ يَتَجاوَزْ سِنَّ الشَّيْخوخَةِ ؟»

« هَذا الحَكيمُ الطَّبيبُ شابٌّ كَالبَدْرِ في لَيْلَةِ اكْتِمالِهِ . »

وَلأوَّلِ مَرَّةٍ يَنْقَشِعُ الرُّكودُ عَنْ روحِ الأميرَةِ وَرْدشان لِتَحُلَّ مَحَلَّهُ لَهْفَةٌ طارِئَةٌ : « وَكَيْفَ عَرَفْتِ هَذا ؟»

« لَمَحْتُهُ وَهُوَ في طَريقِهِ إلى خارِجِ القَصْرِ لِيَرْكَبَ جَوادَهُ بَعْدَ أنِ انْتَهى مِنْ مُهِمَّةِ عِلاجِ مَوْلانا المَلِكِ . »

« رُبَّما كانَ مُساعِدَهُ ؟»

« هُوَ بِشَحْمِهِ وَلَحْمِهِ ، كَما أنَّني تَأكَّدْتُ مِنْ شَخْصِهِ مِنْ أحَدِ المَماليكِ الَّذينَ اصْطَحَبوهُ إلى خارِجِ القَصْرِ . »

ابْتَسَمَتْ وَرْدشان ابْتِسامَةً خالَطَها الحَرَجُ وَالخَجَلُ : « رُبَّما كانَ مُتَزَوِّجًا وَصاحِبَ عِيالٍ ؟»

« سَأُفْضي إلَيْكِ بِكُلِّ ما عَرَفْتُهُ . اسْمُهُ الحَكيمُ بُرهان ابْنُ غَسّان . كانَ أبوهُ مِنْ أشْهَرِ الحُكَماءِ الأثْرِياءِ ، وَلَقَّنَ

ابْنَهُ كُلَّ أسْرارِ المِهْنَةِ مُنْذُ صِباهُ ، وَبِرَحيلِ أبيهِ وَرِثَ ثَرْوَةً كَبيرَةً عَنْهُ تُمَكِّنُهُ مِنَ الحَياةِ طَوالَ عُمْرِهِ في رَفاهِيَةٍ مِنَ العَيْشِ ، فَكَرَّسَ حياتَهُ وَعِلْمَهُ لِعِلاجِ الفُقَراءِ دونَ أنْ يَأخُذَ مِنْهُمْ أيَّ أجْرٍ ، وَأصْبَحَ اسْمُهُ عَلى كُلِّ ألْسِنَةِ الفُقَراءِ وَالبُؤَساءِ . وَظَلَّ عَلى هَذِهِ الحالِ إلى أنِ اسْتَدْعاهُ مَوْلانا المَلِكُ وَتَمَّ شِفاؤُهُ بِحَمْدِ اللهِ عَلى يَدَيْهِ . »

كانَتْ وَرْدشان آذانًا مُصْغِيَةً في جِلْسَتِها المُتَحَفِّزَةِ وَهِيَ تَقولُ : « كُلُّ هَذِهِ مَعْلوماتٌ عَظيمَةٌ ، لَكِنَّكِ لَمْ تُجيبي عَنْ سُؤالي بَعْدُ . »

ضَحِكَتْ جُلْفدان في مَرَحٍ يَنْطَوي عَلى كَثيرٍ مِنَ الدُّعابَةِ وَالتَّخابُثِ وَقالَتْ : « هُنا مَرْبَطُ الفَرَسِ ! تَقْصِدينَ مَسْألَةَ زَواجِهِ ؟ اطْمَئِنّي ، فَقَدْ تَأكَّدْتُ أيْضًا مِنْ أنَّهُ لَيْسَ مُتَزَوِّجًا وَلا مُطَلَّقًا ؛ لأنَّ عِشْقَهُ لِمِهْنَتِهِ وَعَمَلَهُ لَيْلَ نَهارَ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ فُرْصَةً لِلتَّفْكيرِ في أميرَةِ أحْلامِهِ ! »

ضَغَطَتْ جُلْفدان عَلى كَلِمَةِ « أميرَةِ أحْلامِهِ » ، وَلَمْ تَكُنْ وَرْدشان في حاجَةٍ إلى الضَّغْطِ أوِ التَّلْميحِ ؛ فَقَدِ اشْتَعَلَتْ روحُها شَوْقًا لِرُؤْيَةِ هَذا الفَتى العَجيبِ الَّذي

اعْتَذَرَ عَنْ حَياةِ العزِّ وَالرَّفاهِيَةِ في القَصْرِ لِكَيْ يُواصِلَ عِلاجَ الفُقراءِ وَمُساعَدَةَ الْمُحْتاجينَ .

باتَتِ الأميرَةُ وَرْدشان تَتَقَلَّبُ في فِراشِها ، وَهِيَ تَحْلُمُ بِصورَةِ الشّابِّ الجَميلِ العَجيبِ الَّذي لَمْ تَرَهُ .

٦

لَمْ يَكَد الْمَلِكُ يُونان يَفْرَحُ بشِفائِهِ مِنَ البَرَصِ اللَّعين ، وَيَسْتَبْشِرُ بالأيّام القادِمَةِ ، حَتّى عادَ النَّحْسُ لِيُلازِمَهُ مَرَّةً أخْرى ؛ فَقَدْ سَقَطَتِ ابْنَتُهُ الجَميلَةُ الوَحيدَةُ الأميرَةُ وَرْدشان صَريعَةَ الْمَرَضِ الَّذي شَخَّصَهُ البَعْضُ بأنَّهُ الجُنونُ بعَيْنِهِ . وَتَذَكَّرَ الأيامَ العَصيبَةَ التي ماتَتْ فيها أمُّها الحَبيبَةُ وَهِيَ تَلِدُها ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ بَعْدَها .

جُنَّ جُنونُ الوَزيرِ هَمْدانَ ؛ إذْ إنَّ اللَّعْنَةَ الَّتي أصابَتِ الأميرَةَ وَرْدشان لا بُدَّ أنْ تَقْضِيَ تَمامًا عَلى مُسْتَقْبَلِهِ الَّذي ظَلَّ يَحْلُمُ بِهِ وَيُخَطِّطُ لهُ سَنَواتٍ طَويلَةً .

أسْرَعَ هَمْدان إلى الْمَلِكِ يُونان لِيَسْتَأذِنَهُ في إحْضارِ

السَّيِّدَة « شبيكَة » الَّتي اشْتُهِرَتْ بطَرْدِ الجانِّ مِن الأجْسادِ الَّتي تَتَلَبَّسُها ، وَبالطَّبْع سَعِدَ الْمَلِكُ بمَساعي وَزيرِهِ الحَميدَةِ ، خاصَّةً وَأَنَّهُ سَبَقَ لَهُ أن اسْتَدْعى الحكيمَ بُرْهان الَّذي عالَجَهُ بنَجاحٍ لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ بهِ . وَلَمْ يُدْرِكِ الْمَلِكُ أنَّ سَعْيَ هَمْدان الْمَحْمومَ لِعِلاجِ ابْنَتِهِ بإحْضارِ السَّيِّدَةِ « شبيكة » كانَ بقَصْدِ الرَّغْبَةِ في شِفائِها وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ إبْعادِ شَبَحِ الحَكيمِ بُرْهان مِنَ العَوْدَةِ مرَّةً أخْرى إلى القَصْرِ .

وَصَلَتِ السَّيِّدَةُ « شبيكَة » بقَوامِها النَّحيفِ ، وَ وَجْهِها الْمُتَغَضِّنِ ، وَذِراعَيها الْمَعْروقَتَيْنِ ، وَأَنْفِها الْمَعْقوفِ ، وَهِيَ تَتَوَكَّأُ عَلى عَصاها الغَليظَةِ تارِكَةً قِيادَها لِجُلْفدان الَّتي لَمْ تَكُنْ مُسْتَريحَةً لِمَجيئِها عَلى الإطْلاقِ .

دَخَلَتْ عَلى وَرْدشان لِتَضَعَ حَقيبَتَها الكَتانِيَّةَ عَلى المائِدَةِ الصَّدَفِيَّةِ الصَّغيرَةِ أمامَ فِراشِ وَرْدشان الَّتي نَظَرَتْ إلَيْها من طَرْفٍ خَفِيٍّ ثُمَّ تَناوَمَتْ . نَظَرَتْ « شبيكَة » إلى جُلْفدان وَهِيَ تَقولُ لَها في هَمْسٍ أجَشَّ :

« إنَّها نائِمَةٌ الآنَ ، فَلْنَتْرُكْها لِتَسْتَريحَ بما فيه الكِفايَةُ

قَبْلَ أنْ أبْدَأ العِلاجَ . »

أخْرَجَتْ « شبيكَةُ » مِنْ حَقيبَتِها بَعْضَ العِظام الدّاكِنَةِ الجافَّةِ ، وَالقَواقع الصَّفْراء وَالبُنِّيَّةِ وَالرَّماديَّةِ وَالبَيْضاء ، وَكيسًا مَليئًا بالرِّمالِ الصَّفْراء وَآخَرَ بالرِّمالِ البَيْضاء ، وَمِبْخَرَةً صَغيرَةً مِنَ الفِضَّةِ الدّاكِنَةِ مَرْبوطَةً إلى كيسٍ مِنَ البَخور وَعَيْنِ العِفْريتِ ، وَمِسْبَحَةً طَويلَةً ذاتَ حَبّاتٍ سَوْداءَ غَليظَةٍ ، وَكُراتٍ حَمْراءَ. وَضَعَتِ البَخورَ وَعَيْنَ العِفْريتِ في المِبْخَرَةِ ، وحَكَّتْ حَجَرًا بحَجَرٍ فَأحْدَثَتْ شَرَرًا أشْعَلَ المِبْخَرَةَ ، وَبَدَأتْ سَحاباتُهُ في الصُّعودِ إلى سَقْفِ الْمَقْصورَةِ الفِضِّيَّةِ ، وَ وَرْدشان تُتابِعُ مِنْ بَيْنِ جفُونها الْمُنْطَبِقَةِ إلا قَليلا ما يَدورُ.

وتَقَلَّبَتْ وَرْدشان في فِراشِها وَهِيَ تَكْتُمُ سُعالاً أهاجَهُ البَخورُ الْمُتَكاثِفُ في الْمَقْصورَةِ . ونَهَضَتْ « شبيكَةُ » لِتتأمَّلَ وَجْهَها وَعَيْنَيْها الْمُنْطَبِقَتَيْنِ ، ثُمَّ جَسَّتْ جَبينَها بكَفِّها وَضَغَطَتْ بأصابِعِها عَلى صَدْرِها وَقالَتْ بنَبَراتٍ مُنَغَّمَةٍ : « أيُّها السُّلْطانُ وَرَئيسُ الجانِّ ، اسْحَبْ هَذا الجِنَّ المارِقَ مِنْ جَسَدِ هَذِهِ الفَتاةِ الرَّقيقَةِ . أطْلِقْ هَذا العِفْريتَ

السَاحِقَ مِنْ روح هَذِهِ الأميرَةِ العَزيزَةِ . »

ثُمَّ تَفَوَّهَتْ بألْفاظٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ ، وَإنْ كانَتْ عَلى نَفْسِ الوَتيرَةِ النَّغَمِيَّةِ ، وَهِيَ تُواصِلُ تَحْريكَ البَخورِ في المِبْخَرَةِ بِيُسْراها ، وَالضَّغْطَ عَلى بَطْنِ وَرْدشان بِيُمْناها حَتّى انْفَجَرَتْ ضاحِكَةً وَمُنْتَفِضَةً جالِسَةً في فِراشِها ، فَصَرَخَتْ « شبيكَةُ » :

« اُخْرُجْ ، يا مَلْعونُ ! اُتْرُكْها ، يا مَجْنونُ ! »

كادَتْ وَرْدشان تَخْتَنِقُ مِنْ نَوْباتِ الضَّحِكِ ، فَدَفَعَتْ يَدَ شبيكَةَ بَعيدًا عَنْ بَطْنِها ، لَكِنَّ شبيكَةَ أصرَّتْ عَلى الضَّغْطِ عَلَيْها مَرَّةً أخْرى وَلَكِنْ بِقُوَّةٍ أشَدّ ، فَقاوَمَتْها وَرْدشان بِكُلِّ عُنْفِ الشَّبابِ ، وَشبيكَةُ تَصْرُخُ وَتُوَلْوِلُ وَتَأمُرُ الجِنَّ بأنْ يَتْرُكَها فَوْرًا . وَتَحَوَّلَتِ القُوَّةُ وَالْمُقاوَمَةُ إلى صِراعٍ انتَهَى بأنْ لَكَمَتْ وَرْدشان « شبيكَةَ » في وَجْهِها فَسَقَطَتْ عَلى ظَهْرِها بِلا حَراكٍ عَلى الأرْضِ .

وَسَرْعانَ ما كانَتْ جُلْفدان إلى جِوارِها عَلى الأرْضِ تُحاوِلُ مُساعَدَتَها في الإفاقَةِ مِنْ غَيْبوبَتِها، وَلَكِنْ بِلا

جَدْوى . واعْتَراهُما السُّعالُ الحادُّ نَتيجَةً لِسُحُبِ البَخورِ



الَّتي جَعَلَتِ الرُّؤْيا شِبْهَ مُتَعَذِّرَةٍ . وأسْرَعَتْ جُلْفدان فَأطْفَأتْ جَمَراتِ البَخور بالرِّمال ، وَعادَتْ لِمُساعَدَةِ وَرْدشان في مُحاوَلَةِ إيقاظِ « شبيكَة » الَّتي كانَتْ تَتَنَفَّسُ في وَهْنٍ ؛ فاطْمَأنَّتا إلى أنَّها لَمْ تَمُتْ ، وَاسْتَرَدَّتا أنْفاسَهُما اللاهِثَةَ الْمُتَقَطِّعَةَ . وشَرَعَتْ « شبيكَةُ » في التَّحَرُّكِ وَفَتَّحَتْ عَيْنَيْها ، فَقَفَزَتْ وَرْدشان عَلى فِراشِها ، وَعادَتْ جُلْفدان إلى جِلْسَتِها عَلى الْمَقْعَدِ الْمُقابِلِ مَرَّةً أخْرى .

نَهَضَتْ « شبيكَةُ » جالِسَةً وَراحَت تُحاوِلُ أنْ تَسْتَعيدَ ما جَرى . وَعِنْدَما بَدا عَلَيْها أنَّها تَذَكَّرَت ، انْتَصَبَتْ واقِفَةً لِتَجِدَ البَخورَ قَدْ أوْشَكَ عَلى الانْطِفاءِ ، فَأسْرَعَتْ بِإزاحَةِ الرِّمالِ عَنْهُ ، وَأخْرَجَتْ مِنْ حَقيبَتِها الكَتّانِيَّةِ مِرْوَحَةً صَغيرَةً جَعَلَتْ تُحَرِّكُها حَتّى عادَ البَخورُ إلى التَّوَهُّجِ مَرَّةً أخْرى ، وَهِيَ تَقولُ لِجُلْفدان وَإحْساسٌ جارِفٌ بالانْتِصارِ يَغْمُرُها :

« أرادَ الْمَلْعونُ أنْ يُطْفِئَ بَخوري بَعْدَ اللَّكْمَةِ الَّتي أصابَني بِها ، لَكِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ أنَّ بَخوري لَنْ يَنْطَفِئَ أبدًا

قَبْلَ خُروجِهِ مِنْ جَسَدِها وَهَلاكِهِ إلى الأَبَدِ !»

وَعادَتْ « شبيكَةُ » إلى وَرْدشان الَّتي تَناوَمَتْ لِتَضْغَطَ هَذِهِ الْمَرَّةَ بيَمينِها عَلى صَدْرِها وَبِيُسْراها عَلى بَطْنِها . قاوَمَتْ في البِدايَةِ بَوادِرَ الضَّحِكِ لَكِنَّها شَعَرَتْ باخْتِناقٍ يَكادُ يُزْهِقُ أَنْفاسَها ، فَقَبَضَتْ بِيَدَيْها عَلى ذِراعَيْ شبيكَةَ بأَصابعَ مِنْ حَديدٍ وَقُوَّةٍ طاغِيَةٍ لَمْ تَتَصَوَّرْ قَطُّ أَنَّها كامِنَةٌ فيها . وحاوَلَتْ « شبيكَةُ » أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ قَبْضَتِها لَكِنَّها فَشِلَتْ . وظَلَّتْ تَصْرُخُ في الجِنِّ بِأَلْفاظٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ ، لَكِنَّ أَصابعَ وَرْدشان لَمْ تَرْتَخِ . أَحَسَّتْ بِأَنَّ جَرَيانَ الدَّمِ في عُروقِ ذِراعَيْها قَدْ أَوْشَكَ عَلى التَّوَقُّفِ . صَرَخَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنَ الأَلَمِ صَرَخاتٍ مُدَوِّيَةً ، تَرَكَتْ وَرْدشان ذِراعَيْها عَلى أَثَرِها ، فَأَسْرَعَت العَجوزُ إلى إطْفاءِ البَخورِ وَلَمْلَمَةِ حاجِيّاتِها في حَقيبَتِها الكَتّانِيَّةِ ، وَهِيَ تَقولُ لِجُلْفدان لاهِثَةً :

« لَمْ تَعُدْ سِنّي تَسْمَحُ بفَرْضِ قُوَّتي وَسَطْوَتي عَلى أَساطينِ الجِنِّ المارِقينَ مِنْ أَمْثالِ مَيْمونِ بْنِ دَمْدَم الَّذي أَحَبَّ الأَميرَةَ حُبًّا عَظيمًا ، لَكِنَّني لَمْ أَفْقِدْ قُوَّتي

السِّحْرِيَّةَ، وهَأَنَذا أدْرِكُ الآنَ أنَّ شِفاءَها مِنْ أسْهَلِ الأمور ؛ فَعِنْدي في كَهْفي قِطَّةٌ سَوْداءُ ، في طَرَفِ ذَيْلِها بُقْعَةٌ بَيْضاءُ في حَجْم الدِّرْهَم . فَمِنْ هَذِهِ البُقْعَةِ تُؤْخَذُ سَبْعُ شَعَراتٍ، وَبِهَذِهِ الشَّعَراتِ تُبَخَّرُ الأميرَةُ فَيَنْصَرِفُ الماردُ عَنْها ولا يَعودُ إليْها، وَبِذَلِكَ تُشْفَى في الحالِ، وَهَذا ما سَوْفَ أفْعَلُهُ بإذْنِ اللهِ في زِيارَتي القادِمَةِ . سَأقومُ بِتَقْييدِ الأميرَةِ وَأُجْلِسُها ثُمَّ أسْدِلُ عَلَيْها سِتارَةً، وَأخْرِجُ الشَّعَراتِ وَأُبَخِّرُها بها ، عِنْدَئِذٍ لَنْ يَمْلِكَ مَيْمونُ بْنُ دَمْدَم سِوى أنْ يَصْرُخَ وَيَتْرُكَها بَعْدَ أنْ يَتَخَبَّطَها لِبَعْضِ الوَقْتِ . »

سَألَتْها جُلْفدان وَهِيَ تَتَفَحَّصُ نَظَراتِها جَيِّدًا : « وَلِماذا لَمْ تأتي بِهَذِهِ الشَّعَراتِ في هَذِهِ المَرَّةِ ؟»

« كانَ لا بُدَّ أنْ آتِيَ أوَّلاً لأرى الأميرَةَ وَأتَعَرَّفَ عَلى الجِنِّ حَتّى أحَدِّدَ العَمَلَ الَّذي يُجْدي مَعَهُ . »

قالَتْ جُلْفدان بِنَبَراتٍ حاسِمَةٍ أدْهَشتْ شبيكة : « أفْضَلُ لَكِ ألا تأتي مَرَّةً أخْرى إلى هُنا !»

« لِماذا ؟ أ لا تُريدينَ شِفاءَ الأميرَةِ ؟!»

« أُريدُ شِفاءَها بِالطَّبْعِ ، لَكِنَّ حَياتَكِ سَتَكونُ الثَّمَنَ !»

« كَيْفَ بِاللهِ عَلَيْكِ ؟!»

« عِنْدَما كُنْتِ مُلْقاةً عَلى ظَهْرِكِ في غَيْبوبَةٍ أَقْسَمَ الجِنُّ بِكُلِّ عَزيزٍ لَدَيْهِ أَنَّهُ سَيَقْتُلُكِ في الْمَرَّةِ القادِمَةِ ، وَلَمْ تَكُنِ اللَّكْمَةُ الَّتي أصابَتْكِ مِنْهُ سِوى إِنْذارٍ . قالَها وَكَأَنَّ بَيْنَكِ وَبَيْنَهُ ثَأْرًا عَظيمًا . »

كانَتْ « شبيكَةُ » قَدْ لَمْلَمَتْ حاجيّاتِها في حَقيبَتِها وَسارَتْ بِعُكّازِها صَوْبَ الباب ، وَهِيَ تَقولُ كَما لَوْ كانَتْ تُخاطِبُ نَفْسَها : « لَيْسَ هُناكَ ما هُوَ أَغْلَى مِنَ العُمْرِ حَتّى وَلَوْ لَمْ يَتَبَقَّ فيهِ سِوى أَيّامٍ مَعْدودَةٍ . »

٧

انْتَهَزَتْ جُلْفدان غِيابَ الوَزيرِ هَمْدان في مُهِمَّةٍ خارِجَ القَصْرِ وَاسْتَأْذَنَتْ لِتُقابِلَ الْمَلِكَ الَّذي أَذِنَ لَها عَلى الفَوْرِ ؛ فَقَدْ باتَ لَيْلَتَهُ قَلِقًا عَلى ابْنَتِهِ بَعْدَ أَنْ زارَها في مَقْصورَتِها بِالأَمْسِ لِمَعْرِفَةِ ما جَرى في زِيارَةِ السَّيِّدَةِ شبيكَةَ لَها .

دَخَلَتْ جُلْفدان ، فَبادَرَها الْمَلِكُ بِقَوْلِهِ :

« أراكِ مُبْتَسِمَةً ، يا جُلْفدان . خَيْرًا إنْ شاءَ اللهُ ؟»

« خَيْرًا إنْ شاءَ اللهُ ، يا مَوْلايَ . »

« هَلْ نَجَحَتِ السَّيِّدَةُ « شبيكَةُ » في مَعْرِفَةِ ما أَلَمَّ بِالأميرَةِ ؟»

« نَجَحَتْ بِالفِعْلِ ، يا مَوْلايَ . »

قاطَعَها الْمَلِكُ بِلَهْفَةٍ لَمْ يُرِدْ أنْ يُخْفِيَها : « سُبْحانَكَ ، يا رَبِّ . الحَمْدُ وَالشُّكْرُ لَكَ ، يا رَبِّ . »

« لَكِنَّها قالَتْ إنَّ عِلاجَ الأميرَةِ لَيْسَ بِيَدِها . »

قاطَعَها بِيَأْسٍ حاوَلَ أنْ يُقاوِمَهُ بِقَدْرِ الإمْكان : « أعْلَمُ أنَّ الشِّفاءَ بِيَدِ اللهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالَى ، لَكِنَّهُ يُسَبِّبُ الأسْبابَ وَيَصْنَعُ مِنَ البَشَرِ أدَواتٍ لِتَحْقيقِ مَشيئَتِهِ . »

« أنا ، يا مَوْلايَ ، لَمْ أتَكَلَّمْ عَنِ الشِّفاءِ ، بَلْ عَنِ العِلاجِ . »

« أنْتِ قُلْتِ إنَّها نَجَحَتْ بِالفِعْلِ في عِلاجِ الأميرَةِ . »

« هِيَ نَجَحَتْ بِالفِعْلِ في مَعْرِفَةِ ما أصابَها ، لَكِنَّ

عِلاجَها بيَدِ الحَكيمِ بُرْهان بْنِ غَسّان . »

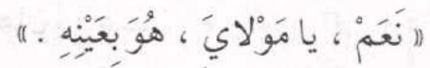
اسْتَرْخَى الْمَلِكُ قَليلاً في كُرْسِيِّهِ وَقالَ مُعَلِّقًا : « لَكِنَّ الوَزيرَ هَمْدان قالَ لي عِنْدَما عَرَضْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الفِكْرَةَ إنَّ الحَكيمَ بُرْهان مُتَخَصِّصٌ في أمْراضِ الجَسَدِ ، أمّا السَّيِّدَةُ « شبيكَةُ » فَمُتَخَصِّصَةٌ في أمْراضِ الرّوحِ . »

تَرَدَّدَتْ جُلْفدان لِلَحَظاتٍ ، لَكِنْ لَمْ تُعْيِها الحيلَةُ ، فَقالَتْ : « لَقَدْ أفْتَتْ ، يا مَوْلايَ ، السَّيِّدَةُ « شبيكَةُ » بأنَّ ما أصابَ الأميرَةَ هُوَ مَرَضٌ جَسَدِيٌّ وَلَيْسَ روحِيًّا . »

« أنْتِ ، يا جُلْفدان ، مُلازِمَةٌ للأميرَةِ كَظِلِّها ، وَأُريدُ أنْ أعْرِفَ مِنْكِ ، عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ ، الأعْراضَ الَّتي تَنْتابُها بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ وَتُجْبِرُها عَلى أنْ تَلْزَمَ فِراشَها . »

« كُلُّ الأعْراضِ ، يا مَوْلايَ ، مَحْصورَةٌ في أَلَمٍ يَشْتَدُّ أحْيانًا في البَطْنِ ، وأحْيانًا في الصَّدْرِ ، وَأحْيانًا ثالِثَةً في الظَّهْرِ . وَعِنْدَما يَشْتَدُّ تَصْرُخُ كَالْمَجْنونَةِ مِمّا جَعَلَ النّاسَ يظُنّونَ أنَّ بها روحًا شِرّيرَةً ! »

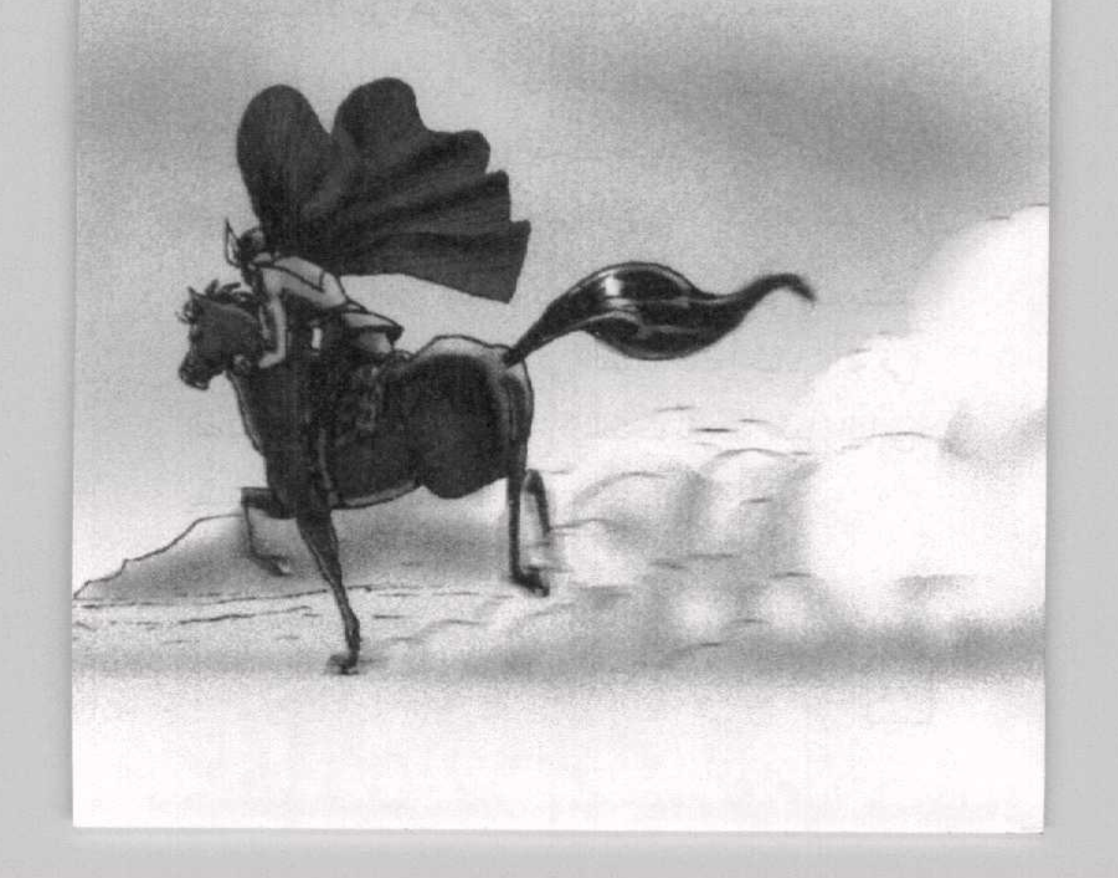
« وَهَلْ هَذا هُوَ ما أوْصَتْ بِهِ السَّيِّدَةُ شبيكَةُ ؟ »



« نَعَمْ ، يا مَوْلايَ ، هُوَ بِعَيْنِه . »

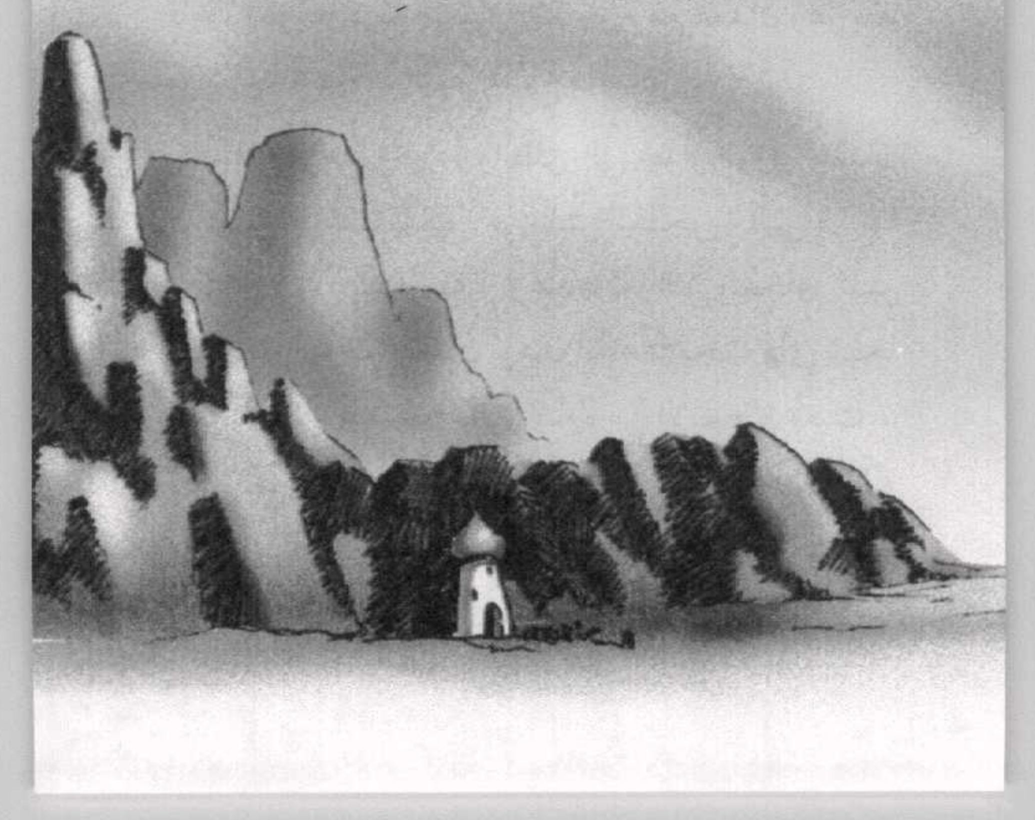
« الحَكيمُ بُرْهان بْنُ غسّان لَيْسَ مُجَرَّدَ حَكيم أوْ طَبيب ، وَلَكِنَّهُ بِمَثابَةِ ابْنِ عَزيز لي ، وَأنا مَدينٌ لَهُ بِفَضْلٍ سَيَظَلُّ في عُنُقي إلى الأَبَد . وَيَبْدو أنَّ أفْضالَهُ سَتَتَوالى عَلَيْنا بِإذْنِ اللهِ. اِذْهَبي أنْتِ الآنَ ، يا جُلْفدان ، إلى سَيِّدَتِكِ . »

اِنْحَنَتْ جُلْفدان بَيْنَ يَدَي المَلِكِ وَغادَرَتِ القاعَةَ .



كانَ عَلى الوَزيرِ هَمْدان أنْ يُفَكِّرَ بِسُرْعَةٍ ؛ فَالطّوفانُ الفِعْلِيُّ قادِمٌ لِيَجْرُفَ في طَريقِهِ كُلَّ ما بَناهُ ، وَعَلَيْهِ إذا لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَتَصَدّى لَهُ أنْ يُحَوِّلَ مَجْراهُ بَعيدًا .

امْتَطى هَمْدان صَهْوَةَ جَوادِهِ دونَ أن يَصْطَحِبَ مَعَهُ أحَدًا ، وَانْطَلَقَ بَيْنَ بَساتينِ القَصْرِ حَتّى جاوَزَها ، ثُمَّ انْحَرَفَ يَسارًا صَوْبَ الصَّحْراءِ ، حَتّى بَدا الجَبَلُ الشّامِخُ الّذي يَحْتَوي في بَطْنِهِ صَوْمَعَةَ الحَكيمِ بُرْهان ، وَهُناكَ



وَجَدَ هَمْدان الفُقَراءَ وَالبُؤَساءَ في انْتِظار الدُّخول إلى بُرْهان ، وَسَرْعانَ ما أفْسَحُوا الطَّريقَ لِهَمْدان بِمُجَرَّدِ اقْتِرابِهِ مِنْهُمْ .

تَرَجَّلَ خارجَ الصَّوْمَعَةِ الحَجَرِيَّةِ ، ثُمَّ أسْرَعَ بالدُّخول ، حَيْثُ كانَ بُرْهان يَقومُ بِفَحْصِ طِفْلٍ لا يَسْتُرُ جَسَدَهُ سِوى بَعْضِ الأسمالِ البالِيَةِ . حَيّاهُ في عَجَلَةٍ وَأخْبَرَهُ بأنّ الْمَلِكَ أمَرَ باسْتِدْعائِهِ فَوْرًا لِعِلاجِ ابْنَتِهِ الْمَريضَةِ . لَمْ يُلْقِ بُرْهان بالطِّفْلِ جانِبًا ، بَلْ أتَمَّ الفَحْصَ وَأعْطى أمَّهُ الباكِيَةَ قارورَةَ دواءٍ وَكيسًا صَغيرًا . ثُمَّ خَرَجَ مَعَ هَمْدان وَهُوَ يَعِدُ مَرْضاهُ بأنَّهُ سَيَعودُ إلَيْهِمْ بِأسْرَعِ ما يُمْكِنُ .

امْتَطَى بُرْهان جَوادَهُ وَانْطَلَقَ إلى جِوارِ الوَزيرِ هَمْدان الَّذي لَمْ يَتَوَقَّفْ تَفكيرُهُ في البِئْرِ الْمَهْجورَةِ الَّتي مَرَّ بِها وَهُوَ قادِمٌ إلى الصَّوْمَعَةِ . وعِنْدَما بَدا التَّلُّ الْمُجاوِرُ لِلْبِئْرِ في الأفُقِ ، أخْبَرَ هَمْدانُ بُرْهانَ أنَّهُ عِنْدَ مَجيئِهِ رأى شَيْخًا مَريضًا مُلْقًى عِنْدَ حافَةِ البِئْرِ يَتَأوَّهُ مِنَ الألَمِ وَلا مُغيثَ ، وَلَوْلا عَجَلَتُهُ لَكانَ قَدْ حَمَلَهُ عَلى جَوادِهِ ، وَأحْضَرَهُ إلَيْهِ في صَوْمَعَتِهِ . سَعِدَ بُرْهان لِشَهامَةِ هَمْدان الَّتي لَمْ

يَلْحَظْها مِنْ قَبْلُ ، وَرَحَّبَ بالفِكْرَةِ ، وَأَوْقَفَ جَوادَهُ بمُجَرَّدِ بُلوغِهِما البِئْرَ ، وسَأَلَهُ عَنِ الشَّيْخِ الْمَريضِ .

لَمْ يَلْقَ بُرْهان إجابَةً عنْ سُؤالِهِ لأَنَّهُ فوجِئَ بدَفْعَةٍ قَويَّةٍ مِنَ الخَلْفِ أَلْقَتْ بِهِ في البِئْرِ ، وَإذا بصَرْخَةٍ مُدَوِّيَةٍ تُرَدِّدُها جَنَباتُ البئر ، وَهَمْدان يَنْفُضُ يَدَيْهِ وَيُهْرَعُ إلى امْتِطاءِ جَوادِهِ الَّذي انْطَلَقَ بِهِ عائدًا إلى القَصْرِ ، وَهُوَ يُنَسِّقُ في ذِهْنِهِ الكَلِماتِ الَّتي سَيَقولُها لِلْمَلِكِ .

لَقَد انْقَشَعَتِ الغُمَّةُ أخيرًا ، بَلْ إنَّهُ يَسْتَطيعُ أنْ يَنْتَهِزَ فُرْصَةَ مَرَضِ الأميرَةِ وَفُقْدانِها لإرادَتِها وَلِقُدْرَتِها عَلى التَّصَدّي وَالرَّفْضِ ، وَيَتَزَوَّجَها تَمْهيدًا لِلْقَفْزِ عَلى كُرْسِيِّ الْمُلْكِ بَعْدَ رَحيلِ أبيها ، وَهُوَ أمْرٌ يُمْكِنُ وَضْعُ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ لَهُ للإسْراعِ بِهِ بِقَدْرِ الإمْكانِ إذا ما امْتَدَّ جُلوسُ الْمَلِكِ عَلى كُرْسِيِّهِ أطْوَلَ مِنَ اللازِمِ .

٩

لَمْ يَسْمَع الْمَلِكُ يُونان أنْباءً أسْوَأَ مِنْ تِلْكَ الَّتي نَقَلَها إلَيْهِ الوَزيرُ هَمْدان ، وَهُوَ يُوَلْوِلُ وَيَنْتَحِبُ لِمَوْتِ الحَكيمِ

الَّذي كَرَّسَ حَياتَهُ وَعِلْمَهُ وخِبْرَتَهُ الطِّبِّيَّةَ لِلْفُقَراءِ وَالبُؤَساءِ ، فَكانَتِ النَّتيجَةُ أَنْ ماتَ ضَحِيَّةَ أَحَدِهِمْ .

قالَ هَمْدان لِلْمَلِكِ وَسْطَ دُموعِهِ الْمُنْهَمِرَةِ : « عِنْدَما رَأى ، يا مَوْلايَ ، ذَلِكَ الشَّيْخَ الْمَريضَ الْمُلْقى عَلى حافَةِ البِئْرِ لَمْ يُطاوِعْهُ قَلْبُهُ ، وَتَوَقَّفَ عِنْدَهُ لِيَفْحَصَهُ بِرَغْمِ اسْتِعْجالي لَهُ ، كَيْ نَصِلَ إلى الأميرَةِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ . ساعَدْتُهُ في فَحْصِهِ فَأَجْلَسْتُهُ لَكِنَّهُ تَشَبَّثَ بِأَصابِعِهِ الْمَعْروقَةِ بِثِيابِ الحَكيمِ بُرهان الَّذي حاوَلَ التَّخَلُّصَ مِنْ قَبْضَتِهِ الحَديدِيَّةِ الَّتي جَعَلَتْهُ يَبْدو وَكَأَنَّ جِنًّا مارِقًا قَدْ تَلَبَّسَهُ ، وَبَيْنَ شَدٍّ وَجَذْبٍ سَقَطَ الشَّيْخُ في البِئْرِ وَخَلْفَهُ الحَكيمُ بُرْهان . نادَيْتُ عَلَيْهِ بِأَعْلى صَوْتٍ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مُجيبٌ . مَدَدْتُ يَدي لَعَلّي أَلْمَسُ أَيَّ جُزْءٍ مِنْ ثِيابِهِ ، لَكِنَّني قَبَضْتُ عَلى الرّيحِ . حاوَلْتُ أَنْ أَتَفَحَّصَ بِعَيْنَيَّ ما يُمْكِنُ أَنْ أَتَبَيَّنَهُ داخِلَ البِئْرِ ، لَكِنَّها كانَتْ كُتْلَةً مِنَ الظَّلامِ بِرَغْمِ الشَّمْسِ الْمُتَوَهِّجَةِ خارِجَها . نادَيْتُ ونادَيْتُ ، بَكَيْتُ وَبَكَيْتُ ، لَكِنَّني تَدارَكْتُ الأَمْرَ في النِّهايَةِ ، وَأَسْرَعْتُ إلى هُنا لَعَلَّهُ يَكونُ في الإِمْكانِ إِرْسالُ

نَجْدَةٍ مِنَ الحِبال وَالسَّلالِم الخَشَبِيَّةِ قَبْلَ فَواتِ الأوانِ . »

صَرَخَ الْمَلِكُ يونان آمِرًا بإعْدادِ حَمْلَةٍ فَوْرِيَّةٍ مِنْ مُتَسَلِّقي الآبار وَمَعَهُمْ كُلُّ مُعَدّاتِهِمْ وَأدَواتِهِمْ . تَوَسَّلَ هَمْدانُ لِلْمَلِكِ كَيْ يَجْعَلَهُ عَلى رَأس هَذِهِ الحَمْلَةِ ، فَاسْتَجابَ الْمَلِكُ لِتَوَسُّلاتِهِ . وَانْهَمَكَ كُلُّ رِجالِ القَصْرِ في إعْدادِ الحَمْلَةِ بِأسْرَعِ ما يُمْكِنُ حَتّى تَتِمَّ قَبْلَ مَغيبِ الشَّمْسِ .

وَسَرْعانَ ما عَرَفَتِ الأميرةُ وَرْدشان وَالوَصيفَةُ جُلْفدان بما جَرى لِلْحَكيم بُرْهان ، فَشَعَرَتا بِمِطْرَقَةٍ حَديدِيَّةٍ تَنْهالُ عَلى رَأْسَيْهِما . لَمْ تُدْرِكْ وَرْدشان مَدى ارْتِباطِها بِطَيْفِ بُرْهان دونَ أنْ تَراهُ إلا عِنْدَما عَرَفَتْ أنَّها فَقَدَتْهُ إلى الأبَدِ ، وَأنَّ هَذِهِ الحَمْلَةَ لا تُعَدُّ إلا لإبْراءِ الذِّمَّةِ . أمّا جُلْفدان فَقَدْ كانَتِ الوَحيدَةَ الَّتي رَأتِ الكارِثَةَ مِنْ جانِبٍ آخَرَ ، فَلا أحَدَ يَعْلَمُ ما يَدورُ داخِلَ هَمْدان مِثْلُها ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تُصَدِّقْ كَلِمَةً واحِدَةً مِمّا قالَهُ أمامَ الْمَلِكِ ؛ فَقَدْ مَلأها اليَقينُ بِأنَّ هَمْدان كانَ وَراءَ سُقوطِ الحَكيم بُرْهان في البِئْرِ ، إنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسُهُ الَّذي ألْقَى بِهِ

لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ إلى الأَبَدِ .

وَسْطَ الدُّموعِ وَالْمُناقَشاتِ بَلَغَ مَسامِعَ وَرْدشان وَجُلْفدان ضَجيجٌ أسْفَلَ الشُّرْفَةِ . فَأطَلَّتا لِتَجِدا الخُيولَ وَالجِمالَ وَالعرَباتِ الَّتي تَحْمِلُ الحِبالَ وَالأَلْواحَ الخَشَبِيَّةَ وَالسَّلالِمَ تَنْطَلِقُ مِنْ بَوّابَةِ القَصْرِ بِقِيادَةِ الفُرْسانِ وَمُتَسَلِّقي الجِبالِ وَالآبارِ ، وَفي مُقَدِّمَتِهِمُ الوَزيرُ هَمْدان الَّذي جَلَسَ عَلى فَرَسِهِ مُنْتَصِبًا شامِخًا !

١٠

عِنْدَما سَقَطَ الحَكيمُ بُرْهان في البِئْرِ الْمَهْجورَةِ ارْتَطَمَ جِسْمُهُ بِما يُشْبِهُ الجِدارَ البارِزَ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ في الظَّلامِ إلى أنْ تَمالَكَ نَفْسَهُ مِنْ هَوْلِ الْمُفاجَأةِ ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ مُمْسِكًا بِقَدْرِ الإمْكانِ بِبَعْضِ الأَحْجارِ الْمُتَآكِلَةِ البارِزَةِ الَّتي مَنَعَتْهُ مِنَ السُّقوطِ في قاعِ البِئْرِ الَّتي لَمْ يَبْدُ لَها قَرارٌ . فَكَّرَ في الحالِ ، وَخَشِيَ أنْ يُواصِلَ هَمْدان تَأكُّدَهُ مِنْ مَوْتِهِ بِأنْ يُلْقِيَ في البِئْرِ أكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الرِّمالِ وَالأَتْرِبَةِ وَالأَحْجارِ ، فَافْتَعَلَ صَرْخَةَ مَنْ سَقَطَ حَتّى القاعِ وَلَقِيَ

حَتْفهُ ! وَعِنْدَما مَدَّ هَمْدان ذِراعَهُ للتَّأكُّد مِنْ مَوْتِهِ كانَ في إمْكان بُرْهان أنْ يُمْسِكَ بها كَيْ يُساعِدَهُ عَلى الصُّعودِ ، لَكِنَّهُ صارَ واثِقًا بأنَّ الإمْساكَ بيَد هَمْدان هُوَ الإمْساكُ بيَدِ الْمَوْتِ ؛ فَظَلَّ كامِنًا في مَخْبَئِه الْمُظْلِم يَرى كُلَّ تحرُّكاتِ هَمْدان وَيَسْمَعُ بَذاءاتِهِ دونَ أنْ يَراهُ هَمْدان أوْ يَرْصُدَهُ .

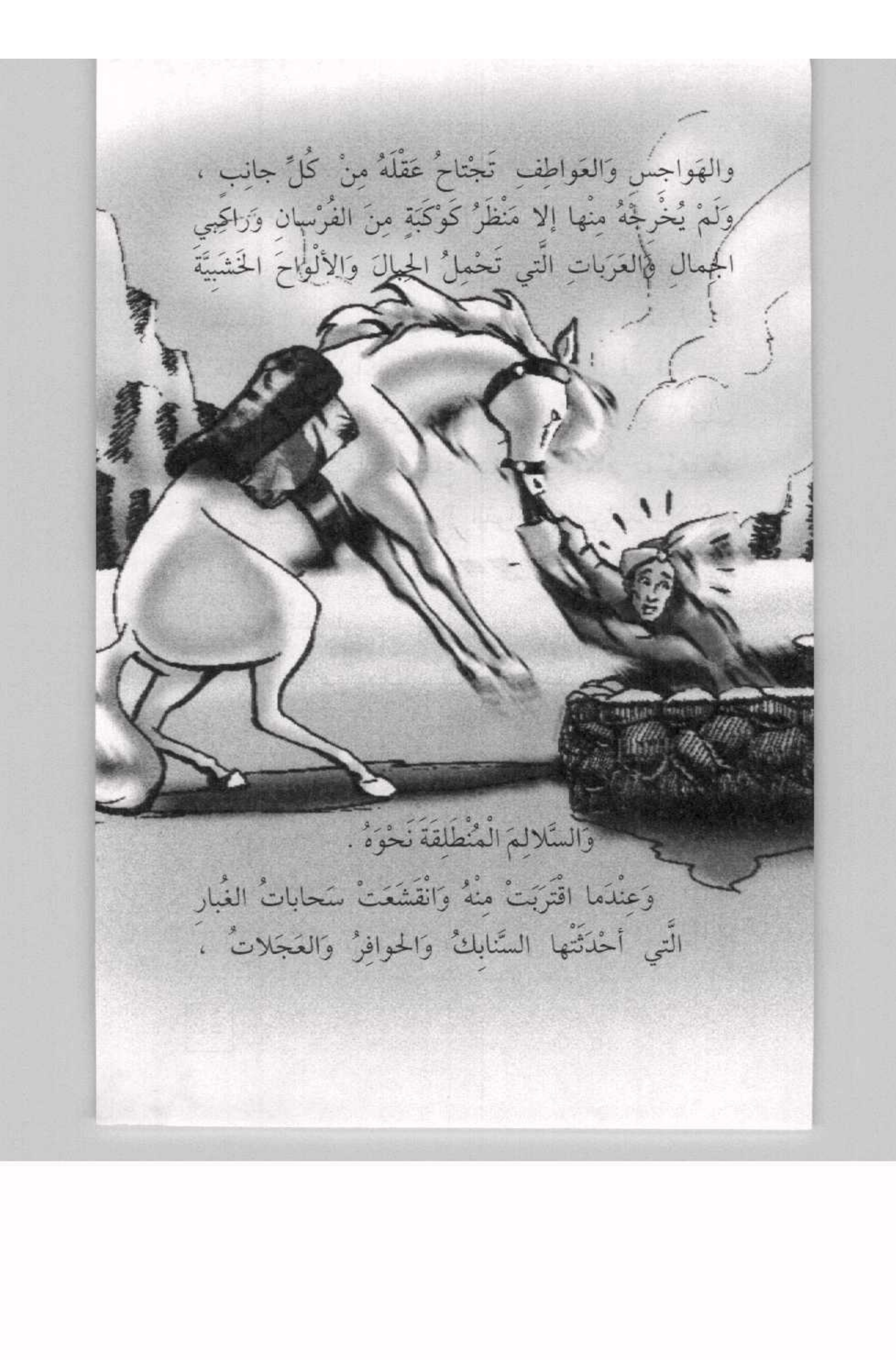
انْتَظَرَ الحَكيمُ بُرْهان في البِئْرِ حَتّى ابْتَعَدَ هَمْدان مَسافَةً كافِيَةً ، وَشَرَعَ في تَلَمُّس طَريقِ الصُّعودِ الَّذي لَمْ يَكُنْ بالسُّهولَةِ الَّتي تَصَوَّرَها برَغْم قِصَرِ الْمَسافَةِ نَحْوَ الفُوَّهَةِ . كانَتِ الحَشَراتُ تَلْسَعُهُ في قَفاهُ وَذِراعَيْهِ لَكِنَّهُ احْتَمَلَ لَسَعاتِها ؛ لأنَّ أيَّةَ هِزَّةٍ أوْ حَرَكَةٍ غَيْرِ مَحْسوبَةٍ قَدْ تُحَقِّقُ كُلَّ أحْلام هَمْدان ، خاصَّةً وَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ بُروزٍ يُمْسِكُ بِهِ نَحْوَ السَّطْحِ .

ظَلَّ بُرْهان يُفَكِّرُ إلى أنْ هَداهُ تَفْكيرُهُ إلى النِّداءِ عَلى فَرَسِهِ عَنْتَر ؛ لَعَلَّهُ لا يَزالُ حَيْثُ تَرَكَهُ ، وَهُوَ ما اعْتادَهُ مِنْهُ دائمًا . نادَى عَلَيْهِ وَأطْلَقَ صَفيرَهُ الْمُعْتادَ فَإذا بِهِ يُطِلُّ عَلَيْهِ مِنْ فُتْحَةِ البِئْرِ بوَجْهِهِ الجَميلِ مَصْحوبًا بِصَهيلِهِ الحَبيبِ . بَدا عَلى عَنْتَرَ في ضَوْءِ الشَّمْسِ الْمُتَوَهِّجَةِ أنَّهُ مُدْرِكٌ



لِمِحْنَةِ صاحِبِهِ فَمَدَّ عُنُقَهُ بِحَيْثُ تَدَلّى لِجامُهُ إلى أَنْ أَمْسَكَ بِهِ بُرْهان بِيُمْناهُ ، وَتَحَسَّسَ بَعْضَ الأَحْجارِ الخَشِنَةِ بِيُسْراهُ . تَرَدَّد بُرْهان لِلَحظاتٍ لَكِنَّ عَنْتَر لَمْ يَتْرُكْ لَهُ فُرْصَةً لِلتَّفْكيرِ ؛ إذْ جَذَبَهُ بِلِجامِهِ فَخَلَعَهُ مِن البُروزِ الجالِسِ عَلَيْهِ وَظَلَّ مُتَدَلِّيًا وَهُوَ يَتَأَرْجَحُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً بَيْنَ الحَياةِ وَالْمَوْتِ إلى أَنْ شَمَخَ الفَرَسُ بِرَأْسِهِ إلى أَعْلى ، ثُمَّ تَراجَعَ بِقُوَّةٍ إلى الخَلْفِ ، فَإذا بِرَأْس بُرْهان تُطِلُّ مِنْ حافَةِ البِئْرِ الَّتي أَمْسَكَ بِأَحْجارِها ، لَكِنْ سَرْعانَ ما جَذَبَهُ عَنْتَر فَوَجَدَ نَفْسَهُ عَلى الحافَةِ وَهُوَ لا يُصَدِّقُ أَنَّهُ نَجا مِنَ الْمَوْتِ . نَهَضَ واقِفًا وَهُوَ يُقَبِّلُ فَرَسَهُ في جَبينِهِ وَعُرْفِهِ وَعُنُقِهِ ، وَيُبَلِّلُهُ بِالدُّموعِ . وَعِنْدَما تَمالَكَ نَفْسَهُ ، وَأَمْسَكَ بِزِمامِ مَشاعِرِهِ امْتَطى صَهْوَتَهُ مُنْطَلِقًا بِهِ صَوْبَ القَصْرِ ، وَجُيوشٌ مِنَ الأَفْكارِ

والهَواجِسِ وَالعَواطِفِ تَجْتاحُ عَقْلَهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ،
وَلَمْ يُخْرِجْهُ مِنْها إلا مَنْظَرُ كَوْكَبَةٍ مِنَ الفُرْسانِ وَراكِبي
الجِمالِ وَالعَرَباتِ الَّتي تَحْمِلُ الحِبالَ وَالألْواحَ الخَشَبِيَّةَ



وَالسَّلالِمَ الْمُنْطَلِقَةَ نَحْوَهُ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَانْقَشَعَتْ سَحاباتُ الغُبارِ
الَّتي أَحْدَثَتْها السَّنابِكُ وَالحَوافِرُ وَالعَجَلاتُ ،

اكْتَشَفَ أنَّها بقيادَةِ الوَزيرِ هَمْدان الَّذي دَقَّقَ البَصَرَ وَدَعَكَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ لا يُصَدِّقُ ما يَرى !

عَجَزَ ذِهْنُ هَمْدان عَنِ اسْتيعابِ أبْعادِ المُفاجأةِ المُذْهِلَةِ ! ماذا سَيَقولُ للرِّجالِ الَّذينَ خَرَجوا مَعَهُ لإنْقاذِ بُرْهان ، بَعْدَ أنْ أكَّدَ لَهُمْ أنَّهُ رَقَدَ بلا حَراكٍ في قاعِ البِئْرِ المُظْلِمِ ، الَّذي لا يَعْرِفُ أحَدٌ كَيْفِيَّةَ الوُصولِ إلَيْهِ ؟ كَيْفَ خَرَجَ الحَكيمُ بُرْهان مِنْ قاعِ البِئْرِ سَليمًا مُعافًى ، وَها هُوَ ذا الآنَ يَمْتَطي فَرَسَهُ مَمْشوقَ القَوامِ كَأحْسَنِ الفُرْسانِ ؟

لأوَّلِ مَرَّةٍ يَجِدُ الوَزيرُ هَمْدان عَقْلَهُ عاجِزًا عَنِ التَّفْكيرِ . نَظَرَ إلى مَنْ حَوْلَهُ وَخَلْفَهُ وَصاحَ فيهِمْ :

« لا فائِدَةَ مِنْ ذَهابِنا . لَقَدْ ماتَ الحَكيمُ بُرْهان وَها هُوَ عِفْريتُهُ قادِمٌ إلَيْنا . ارْجِعوا . اهْرُبوا بِجِلْدِكُمْ قَبْلَ أن يُطْبِقَ عَلَيْنا !»

ذُهِلَ الرِّجالُ عِنْدَما تَبَيَّنوا مَلامِحَ الحَكيمِ بُرْهان بالفِعْلِ ، وَدونَ تَفْكيرٍ اسْتَداروا عائِدينَ وَقَدْ وَلَّوُا الأدْبارَ .

أبْطَأ هَمْدان مِنْ سُرْعَةِ فَرَسِهِ حَتّى واجَهَهُ بُرْهان الَّذي

رَمقَهُ بنَظْرَةٍ كُلُّها سُخْرِيَةٌ ، حاوَلَ هَمْدان أن يَتَجَنَّبَها بقَوْلِه : « هَذِهِ أسْعَدُ لَحْظَةٍ في حَياتي أنْ أراكَ سَليمًا مُعافًى بَعْدَ المِحْنَةِ الَّتي مَرَرْتَ بها ! كُنّا في الطَّريقِ إلَيْكَ لإنْقاذِكَ . فَعِلاجُ الأميرَةِ مُرْتَهِنٌ بكَ ! »

« ولِماذا لَمْ تُوَلِّ الأدْبارَ مَعَهُمْ ؟ أ لَمْ تقُلْ لَهُمْ إنَّني عِفْريتُ الحَكيم بُرْهان ؟ »

« هُمُ الَّذينَ اعْتَقَدوا ذَلِكَ ؛ فَأنا لَمْ أقُلْ لَهُمْ شَيْئًا ! »

« أنْتَ لا تَقولُ شَيْئًا ولا تَفْعَلُ شَيْئًا ! ولِذَلِكَ فَأنا سَقَطْتُ في البِئْرِ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي ! »

« لَقَدْ حاوَلْتُ إنْقاذَكَ بقَدْرِ الإمْكانِ ، لَكِنْ قُلْ لي كَيْفَ مَنَّ اللهُ ، سُبْحانَهُ وتَعالى ، عَلَيْكَ بالنَّجاةِ ؟ »

انْطَلَقَ بُرْهان بفَرَسِهِ فَاسْتَدارَ هَمْدان بفَرَسِهِ وانْطَلَقَ بمُحاذاتِه . أطَلَّتِ المَخاوِفُ مِنْ نَظَراتِ هَمْدان الحائِرَةِ فَأيْقَنَ بُرْهان كَمْ هُوَ ضَعيفٌ ومُتَرَدِّدٌ برَغْمِ كُلِّ ما يَدَّعيهِ مِنْ قُوَّةٍ . قالَ لَهُ مُتَسائِلاً في سُخْرِيَةٍ لَمْ يُخْفِها :

« تُريدُ أنْ تَعْرِفَ ‹‹ كَيْفَ ›› ، لَكِنَّني سَأتْرُكُكَ عَلى

جَمْر مَخاوِفكَ . وَمَعَ ذَلكَ سَأقولُ لَكَ «لماذا» مَنَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيَّ بالنَّجاة ؛ ذَلكَ لأنَّ الخَيْرَ لا بُدَّ أنْ يَنْتَصِرَ عَلى الشَّرِّ مَهْما يَطُلْ أمَدُهُ . وَالحِقْدُ نارٌ لا بُدَّ أنْ تَلْتَهِمَ نَفْسَها في النِّهايَةِ إذا لمْ تَجِدْ ما تَلْتَهِمُهُ . »

« أنا لا أفْهَمُ وَلا أعي ما تَقولُ ! »

« أنْتَ تَفْهَمُ وتَعي أكْثَرَ مِنَ اللازم . وَأنا لَنْ أُقابِلَ الشَّرَّ بالشَّرِّ ، وَلا الإساءَةَ بالإساءَةِ ، حَتّى تُراجِعَ نَفْسَكَ وَتَعودَ مِنْ طَريقِ الباطِلِ الَّذي تَسيرُ فيهِ ، لَكِنَّكَ إذا حاوَلْتَ أنْ تَبْطِشَ بي مَرَّةً أخْرى فَسَأُفْشي سِرَّكَ لِلْمَلِكِ ، كَما أنَّ مُحاوَلَتَكَ هَذِهِ لا بُدَّ أنْ تَفْشَلَ قَبْلَ أن تَقَعَ لأنَّ اللهَ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، مَنَحَني القُدْرَةَ عَلى قِراءَةِ أفْكارِ النّاسِ قَبْلَ الاسْتِماعِ إلى كَلِماتِهِمْ . »

قالَ هَمْدان في اسْتِسْلام لَمْ يُعْهَدْ فيهِ مِنْ قَبْلُ : « لَقَدْ لَعِبَ الشَّيْطانُ بِعَقْلي وَجَلَّ مَنْ لا يُخْطِئُ . »

« فَلْنَتْرُكِ الأيّامَ القادِمَةَ تُثْبِتُ حَقيقَةَ النَّدَمِ وَالتَّوْبَةِ ، فَما أسْهَلَ الأقْوالَ وَأصْعَبَ الأفْعالَ ! »

« سَتَرى كُلَّ خَيْرٍ في الأيّامِ القادِمَةِ . »

لَمْ يَرُدَّ بُرْهان ، في حينَ بَدَتْ قِبابُ القَصْرِ الذَّهَبِيَّةُ وَأَبْراجُهُ الفِضِّيَّةُ في الأُفُق ، وَسادَ صَمْتٌ كَئيبٌ ضاعَفَ مِنْ وَطْأَةِ الكابوسِ الَّذي رَزَحَ تَحْتَهُ الوَزيرُ هَمْدان .

١١

اِخْتَلَطَتِ النَّشْوَةُ بالحُلْم بالذُّهول في أرْجاءِ القَصْرِ ، حَيْثُ تَجَمَّعَ أَرْبابُ الدَّوْلَةِ غَيْرَ مُصَدِّقينَ ما جَرى وَما يَجْري ؛ لَوْلا أَنَّهُمْ رَأَوُا الحَكيمَ بُرْهان رَأْيَ العَيْن ، وَسَلَّموا عَلَيْهِ باليَد ، وَاحْتَضَنَهُ بَعْضُهُمْ مُهَنِّئًا بالسَّلامَةِ ، ثُمَّ أجْلَسَهُ المَلِكُ يونان إلى يَمينِهِ لِيَسْتَمِعَ إلى تَفاصيلِ ما جَرَى لَهُ ، وَدَقّاتُ قَلْبِ هَمْدان تَعْلو وَتَتَسارَعُ خَوْفًا مِنْ أنْ يَحْكِيَ بُرْهان ما جَرَى ، لَكِنَّهُ كانَ عِنْدَ وَعْدِهِ فَلَمْ يَزِدْ عَلى حِكايَةِ فَرَسِهِ عَنْتَر الَّذي تَعَلَّقَ بلِجامِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْعَدْ هَمْدان كَثيرًا بكِتْمان ما جَرَى ، فَقَدْ غَطَّى حُزْنُهُ عَلى الفَرْحَةِ الأولى ؛ إذْ أَصْبَحَتْ لِبُرْهان اليَدُ العُلْيا عَلَيْهِ ، وَأَصْبَحَ الطَّريقُ مَفْتوحًا أَمامَهُ إلى قَلْبِ الأَميرَةِ حَتّى لَوْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ . يَكْفي أنَّ المَلِكَ قالَ لَهُ عِنْدَ اسْتِقْبالِهِ

بِحَرارَةٍ لا مَثيلَ لَها :

« مَجيئُكَ سالِمًا إليَّ بِمَثابَةِ سَماعي لِخَبَرِ شِفاءِ ابْنَتي . »

ثُمَّ حَلَّتِ اللَّحْظَةُ القاتِلَةُ لِهَمْدان عِنْدَما تَوَجَّهَ بُرْهان إلى مَقْصورَةِ الأميرةِ وردشان . عَلَتْ دَقّاتُ قَلْبِ جُلْفدان وَهِيَ تُرَحِّبُ بِهِ وَتَقودُهُ إلى بابِ الْمَقْصورةِ الوَرْدِيَّةِ ، وَهُوَ في دَهْشَةٍ مِنْ أمْرِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الَّتي عرَفَتْهُ عَلى الفَوْرِ وَعَرَفَتِ الْمُهِمَّةَ الَّتي جاءَ مِنْ أَجْلِها ، وَبَعْدَ أنْ هَنَّأَتْهُ بالسَّلامَةِ ، تَرَكَ قِيادَهُ لَها وَهِيَ تَفْتَحُ لَهُ بابَ الْمَقْصورَةِ وَتُزيحُ عَنْهُ السَّتائِرَ الحَريرِيَّةَ الوَرْدِيَّةَ لِيَدْخُلَ وَيُفاجَأَ بالأميرَةِ الجَميلَةِ جالِسَةً في فِراشِها وَلِسانُ حالِهِ يَقولُ :

« سُبْحانَ مَنْ صَوَّرَ هَذا الجَمالَ . »

كانَتْ حُلْمًا شاخِصًا إلَيْهِ بِعَيْنَيْها السَّوْداوَيْنِ بِوَميضِهِما السِّحْرِيِّ ، وَبَشَرَتِها البَيْضاءِ الْمُشْرَبَةِ بالحُمْرَةِ الَّتي لا تَمُتُّ إلى شُحوبِ الْمَرَضِ بِصِلَةٍ ، وَثَوْبِها الوَرْدِي .

انْحَنى الحَكيمُ بُرْهان احْتِرامًا لِلأميرَةِ قائِلاً :

« فَلْيَكْتُبِ اللهُ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، الشِّفاءَ وَالسَّلامَةَ لِمَوْلاتي الأَميرَةِ . »

لَمْ تُصَدِّقِ الأَميرَةُ أُذُنَيْها ، كَما لَمْ تُصَدِّقْ عَيْنَيْها عِنْدَما وَقَعَتا عَلَيْهِ . فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ جَمالِ الصّورَةِ وَجَمالِ الصَّوْتِ . هَذا الفَتى الوَسيمُ ، الرَّشيقُ ، الَّذي يَمْلِكُ كُلَّ حِكْمَةِ القُدَماءِ ، وَعُلومَهُمُ الطِّبِّيَّةَ وَفَلْسَفَتَهُمُ العَميقَةَ ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ صَفَحاتِ كُتُبِ الأَساطيرِ . لَمْ تَمْلِكْ سِوى أَنْ تَقولَ بِصَوْتٍ هامِسٍ مَبْحوحٍ :

« إِنّي آسِفَةٌ لأَنَّني كُنْتُ سَبَبَ المِحْنَةِ الَّتي نَجّاكَ اللهُ مِنْها . »

أَجابَها : « لَقَدْ كَتَبَ اللهُ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لي عُمْرًا جَديدًا حَتّى أَشْرُفَ بِرُؤْيَةِ سُمُوِّكِ .

« وَلْتَسْمَحْ لي سَيِّدَتي أَنْ أُطَمْئِنَها عَلى صِحَّتِها دونَ أَنْ أَفْحَصَها . سَيِّدَتي ، أَنْتِ في أَتَمِّ صِحَّةٍ ، وَإِذا كانَتْ هُناكَ بَعْضُ الأَعْراضِ الَّتي أَلَمَّتْ بِكِ فَلا بُدَّ أَنْ تَكونَ نَتيجَةً لِبَعْضِ المُضايَقاتِ الَّتي انْتابَتْكِ . »

عادَتْ وَرْدشان إِلى ذُهولِ الحُلْمِ وَقَدْ وَجَدَتْهُ يَقْرَأُ

١

أفْكارَها ، فَسارَعَتْ إلى انْتِهاز الفُرْصَةِ لِلْمُصارَحَةِ القَلْبِيَّةِ الْمَفْتوحَةِ : « فِعْلاً ، يا سَيِّدي . هَذا هُوَ مَرَضي كَما وَصَفْتَهُ عَلى وَجْهِ التَّحْديد . »

ابْتَسَمَ بُرْهان ابْتِسامَةً حانِيَةً حالِمَةً وَقالَ : « وَهَذا مَرَضٌ ، يا سَيِّدَتي ، عِلاجُهُ في يَدِ صاحِبِهِ ؛ فَالعَقاقيرُ لا تُجْدي فيهِ . »

« هَلْ نَدِمْتَ ، يا سَيِّدي ، عَلى مَجيئِكَ ؟ »

كانَ بُرْهان عَلى وَشْكِ أَنْ يَرُدَّ لَوْلا تَدَخُّلُ جُلْفدان الَّتي قالَتْ فيما يُشْبِهُ الاعْتِذارَ وَالتَّأَسُّفَ :

« لَقَدْ كانَتِ الفِكْرَةُ فِكْرَتي ، يا سَيِّدي ، فَأَنا مَدينَةٌ لَكَ بِحَياتي بَعْدَ أَنْ شَفاني اللهُ عَلى يَدَيْك . قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَ في خِدْمَةِ مَوْلاتي الأَميرَةِ . كُنْتُ جارِيَةً وَأُصِبْتُ بِمَرَضٍ عُضال ، وَعِنْدَما فَشِلَ النَّخاسُ في بَيْعي بِأَبْخَسِ الأَثْمانِ أَلْقى بي إلى جِوار بِئْرٍ مَهْجورَةٍ . وَمَرَرْتَ أَنْتَ ، يا سَيِّدي ، بِفَرَسِكَ لِتَحْمِلَني عَلَيْهِ إلى صَوْمَعَتِكَ حَيْثُ عالَجْتَني دونَ مُقابِلٍ ؛ لأَخْرُجَ مِنْ عِنْدِكَ صَحيحَةً بَعْدَ اسْتِضافَتي لِعِدَّةِ أَيّامٍ . وَلَمْ يَتَوَقَّفْ كَرَمُكُمْ عِنْدَ هَذا

الحَدِّ، بَلْ تَوَسَّطَ والِدُكَ الحَكيمُ العَظيمُ قَبْلَ وَفاتِهِ بِعِدَّةِ أَيّام لَدى الْمَسْئولِ عَنْ بَساتينِ القَصْرِ ، فَأَلْحَقَني بالعَمَلِ تَحْتَ إشْرافِهِ ، إلى أَن الْتَقَطَتْني مَوْلاتي الأميرَةُ وَرْدشان لأعْمَلَ في خِدْمَتِها . فَأنا لا يُمْكِنُ أَنْ أَنْسَى فَضْلَكَ وَفَضْلَ وَالِدِكَ العَظيم عَلَيَّ . »

نَظَرَ إلَيْها وَبَدا عَلَيْهِ التَّأَمُّلُ العميقُ وَتَذَكَّرَ الأَحْداثَ الَّتي رَوَتْها ، لَكِنَّهُ تَدارَكَ الأَمْرَ قائلاً في بَعْضِ الخَجَلِ وَالحَرَجِ : « الفَضْلُ فَضْلُ اللهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى . »

شَحَنَتْ وَرْدشان نَفْسَها بطاقَةٍ مِنْ جُرْأةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَراجَعَ وَيَسْتَأذِنَ مُنْصَرِفًا ، فَتُصْبِحَ خُطَّتُها مَعَ جُلْفدان كَأَنَّها لَمْ تَكُنْ ، فَقالَتْ بانْدِفاعٍ مَلْحوظٍ :

« واسْتِمْرارًا لِلْمُصارَحَةِ القَلْبِيَّةِ الْمَفْتوحَةِ فَإنَّني أَرَدْتُ رُؤْيَتَكَ لَيْسَ بِسَبَبِ مَرَضي ، وَلكِنْ بِسَبَبِ ما سَمِعْناهُ عَنْكَ ، وَلأشْكُرَكَ عَلى عِلاجِكَ لأبي . »

وَجَدَ بُرْهان نَفْسَهُ يَسْأَلُها دونَ تَفْكيرٍ : « هَلْ سَيِّدَتي سَعيدَةٌ في حَياتِها الزَّوجِيَّةِ ؟ »

غَمَرَتِ السَّعادَةُ وَرْدشان وَهِيَ تُجيبُ عَنِ السُّؤالِ دونَ

تَفْكيرٍ : « لَمْ أَتَزَوَّجْ بَعْدُ ؟»

« هَلْ هُناكَ أَميرٌ أَوْ شابٌّ في الأُفُقِ يُمْكِنُ أَنْ يُخَلِّصَكِ مِمّا يَنْتابُكِ مِنْ ضيقٍ ؟ فَالزَّواجُ خَيْرُ عِلاجٍ لِحالَتِكِ !»

« جَميعُ الأُمَراءِ تَجاوَزوا سِنَّ الكُهولَةِ !»

« ماذا سَأَقولُ لأَبيكِ الْمَلِكِ عِنْدَما أعودُ إِلَيْهِ ؟»

« قُلْ لَهُ إِنَّ زِيارَتَكَ كانَتِ السَّبَبَ في شِفائي !»

« سَيَحْمِلُ لي فَضْلاً لا أَسْتَحِقُّهُ ! فَأَنا في الحَقيقَةِ لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا . »

تَدَخَّلَتْ جُلْفدان في الحَديثِ وَهِيَ تَدْفَعُ إِلَيْهِ بِمَقْعَدٍ عاجِيٍّ جَلَسَ عَلَيْهِ : « لَوْ تُدْرِكُ ، يا سَيِّدي ، التَّغَيُّرَ السَّعيدَ الَّذي حَدَثَ لِسَيِّدَتي الأَميرَةِ بَعْدَ حُلولِكَ هُنا ، لَعَرَفْتَ الفَضْلَ الَّذي صَنَعْتَهُ وَتَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ كُلَّ تَقْديرٍ وَحُبٍّ ؛ وَلِذَلِكَ نَتَمَنّى – هِيَ وَأَنا – أَنَّهُ إِذا كانَتْ هَذِهِ هِيَ زِيارَتُكَ الأولَى لَها ، فَلَعَلَّها لا تَكونُ الأَخيرَةَ . »

الْتَفَتَ بُرْهان لِجُلْفدان وَكُلُّهُ إِعْجابٌ بِذَكائِها وَحُنْكَتِها

وسَأَلَ : « وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ آتِيَ لِزِيارَةِ الأَميرَةِ دونَ سَبَبٍ مَعْقولٍ ؟»

أجابَتْهُ : « لَنْ تَعْدَمَ السَّبَبَ وَأَنْتَ تَمْلِكُ الفَلْسَفَةَ وَالحِكْمَةَ . »

قالَ : « لَيْسَ هُناكَ سَبَبٌ يُمَكِّنُني مِنْ هَذا بَعْدَ أَنْ شُفِيَتِ الأَميرَةُ . »

« أَنْتَ لا تَعْلَمُ مَكانَتَكَ الرّائِعَةَ في قَلْبِ مَوْلانا الْمَلِكِ . »

« وَهَلْ هَذا سَبَبٌ مَعْقولٌ وَأنا لَسْتُ مِنْ طَبَقَةِ الأُمَراءِ أَوِ الوُزَراءِ ؟»

« تَقولُ هَذا لأَنَّكَ لا تَعْلَمُ ، يا سَيِّدي ، ماذا قالَ عَنْكَ مَوْلايَ الْمَلِكُ عِنْدَما أَرْسَلَ الوَزيرَ هَمْدان لاسْتِدْعائِكَ . »

بَدَتِ اللَّهْفَةُ في نَظَراتِ بُرْهان وَهُوَ يَتَساءَلُ :

« ماذا قالَ ؟»

« قالَ : لَوْ طَلَبَ مِنّي الحَكيمُ بُرْهان يَدَ ابْنَتي الأَميرَةِ وَرْدشان يَوْمَ نَجَحَ في عِلاجي لَما تَرَدَّدْتُ لَحْظَةً واحِدَةً . وَهَذا ما جَعَلَ الوَزيرَ هَمْدان يَكادُ يَموتُ كَمَدًا ؛ وَلِذَلِكَ

لا بُدَّ أَنْ تَأْخُذَ حَذَرَكَ مِنْهُ ؛ لأنَّ زَوْجَ الأَميرَةِ وَرْدشان سَيَكونُ وليَّ عَهْدِ الْمَمْلَكَةِ . »

« تَتَكَلَّمينَ كَما لَوْ كُنْتُ قَدْ أصْبَحْتُ زَوْجًا لِلأميرَةِ ؟»

نَظَرَ إلى وَرْدشان الَّتي أشاحتْ بِوَجْهِها الَّذي غَطَّتْهُ حُمْرَةُ الخَجَلِ وَهِيَ تُرْسِلُ بَصَرَها عَبْرَ النّافِذَةِ . »

وأَضافَتْ جُلْفدان بِثِقَةٍ مُتَصاعِدَةٍ :

« والآنَ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدْتَ مِنْ مَكانَتِكَ الأَثيرَةِ في قَلْبِ مَوْلانا الْمَلِكِ فَقَدْ أصْبَحَ الطَّريقُ مَفْتوحًا ، وَلَمْ تَعُدْ في حاجَةٍ لأيَّةِ حُجَّةٍ يُمْكِنُ أنْ تَتَذَرَّعَ بها . »

ابْتَسَمَتْ جُلْفدان في سَعادَةٍ ، وَهِيَ تَتَبَيَّنُ أَثَرَ كَلِماتِها عَلى وَجْهِ وَرْدشان . اسْتَمَدَّ بُرْهان مِنْ جُرْأَةِ جُلْفدان قُوَّةً جَعَلَتْهُ يَسْأَلُ الأَميرَةَ الَّتي تَحاشَتْ نَظَراتِه :

« لَوْ خَرَجْتُ مِنْ هُنا وَتَقَدَّمْتُ لِمَوْلايَ الْمَلِكِ بِطَلَبِ يَدِ كَريمَتِهِ الأَميرَةِ ؛ هَلْ سَتَرْضَى بي زَوْجًا لَها ؟»

خَرَجَ صَوْتُ الأَميرَةِ مَبْحوحًا ، هامِسًا ، مُتَقَطِّعًا : « إنَّ القَرارَ قَرارُ أبي . »

سارَعَتْ جُلْفدان بالتَّدَخُّلِ حَتّى تَحْسِمَ الْمَوْضوعَ نِهائِيًا قائِلَةً : « مَوْلايَ الْمَلِكُ تَرَكَ القَرارَ لِمَوْلاتي الأَميرَةِ الَّتي رَفَضَتْ مِنْ قَبْلُ الوَزيرَ هَمْدان ، وَكانَ رَفْضُها هُوَ القَرارَ النِّهائِيَّ ؛ وَلِذَلك أَقولُها لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ : عَلَيْكَ أَنْ تَأخُذَ حِذْرَكَ مِنْهُ ، لأَنَّهُ أُفْعوانٌ ، ناعِمُ الْمَلْمَسِ ، سامُّ النّابِ . »

رَدَّ بُرْهان قائلاً : « لا تَخافي ، يا جُلْفدان ؛ فَقَدْ عَلَّمَني الطِّبُّ ألا أُهْمِلَ أَيَّةَ شارِدَةٍ أَوْ وارِدَةٍ ؛ لأَنَّها قَدْ تَكونُ السَّبَبَ في مَرَضٍ عُضالٍ دونَ أَنْ نَدْرِيَ . »

نَهَضَ الحَكيمُ بُرْهان ثُمَّ انْحَنى مُحَيِّيًا الأَميرَةَ ، وانْصَرَفَ .

١٢

ازْدانَ القَصْرُ الْمَلَكِيُّ بالأَفْراحِ وَاللَّيالي المِلاحِ الَّتي أُقيمَتْ أَرْبَعينَ لَيْلَةً إلا لَيْلَةً لِزِفافِ الأَميرَةِ وَرْدشان بِنْت الْمَلِكِ يونان إلى الحكيم بُرْهان بْن غَسّان ، وَ وَلِيِّ عَهْدِ الْمَمْلَكَةِ ؛ طِبْقًا لِوَصِيَّةِ الْمَلِكِ الَّتي أَعْلَنَها بِنَفْسِهِ بِمُجَرَّدِ

عَقْدِ القرانِ السَّعيدِ .

جَلَسَتْ وَرْدشان كَلُؤْلُؤَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ إلى جوارِ عَريسِها بُرْهان الَّذي خَلَبَ لُبَّ الْمُحْتَفلينَ بوَسامَتِه وَشَبابِهِ وَحَيَويَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَكانَتْ فَرْحَةُ الْمَلِكِ بِهِما عَظيمَةً .

وَفَوْرَ انْتِهاءِ الأَفْراحِ وَاللَّيالي المِلاحِ ، وَرَحيلِ الْمُطْرِبينَ وَالْمُوسيقيّينَ وَالراقِصينَ ، وَانْتِقالِ بُرْهان لِلْعَيْشِ مَعَ وَرْدشان ، لَمْ يَحْتَمِلْ هَمْدان البَقاءَ في القَصْرِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَصَعِدَ لِمُقابَلَةِ الْمَلِكِ وَرَجاهُ أَنْ يَعودَ مَرَّةً أُخْرى إلى العَمَلِ قائِدًا لِحَرَسِ الحُدودِ في ثُكُناتِها بَعيدًا عَنِ القَصْرِ .

لَمْ يَنْسَ الْمَلِكُ يونان أَنَّ الوَزيرَ هَمْدان كانَ السَّبَبَ في إِحْضارِ الحَكيمِ بُرْهان إلى القَصْرِ حينَ شَفاهُ مِنْ مَرَضِ البَرَصِ اللَّعينِ ؛ وَلِذَلِكَ أَسِفَ أَشَدَّ الأَسَفِ لِلْحُزْنِ العَميقِ الَّذي غَرِقَ فيهِ ، وَلِكَيْ يُرْضِيَهُ قَرَّرَ أَنْ يُعَيِّنَهُ قائِدًا لِحَرَسِ الحُدودِ لِمُدَّةِ عامٍ واحِدٍ فَقَطْ ، يَعودُ بَعْدَهُ لِمُباشَرَةِ مَهامِّهِ كَوَزيرٍ بِالقَصْرِ .

انْطَلَقَ هَمْدان عَلى جَوادِهِ مُخْتَرِقًا الصَّحْراءَ إلى

مُعَسْكَرِ حَرَسِ الحُدودِ ، وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ عَزْمٌ مُتَوَثِّبٌ افْتَقَدَهُ مُنْذُ لَحْظَةِ عَوْدَةِ بُرْهانِ مِنَ البِئْرِ . كانَ مُنْطَلِقًا بِجَوادِهِ الأَسْوَدِ كَأَنَّهُ يُسابِقُ الرّيحَ حَتّى بَدَتْ أَسْوارُ الْمُعَسْكَرِ في الأُفُقِ ، فَجَذَبَ اللِّجامَ بِشِدَّةٍ كَأَنَّهُ يَتَمَنّى أَنْ يَطيرَ إِلَيْهِ . وَفي لَحَظاتٍ فُتِحَتْ لَهُ البَوّابَةُ الخَشَبِيَّةُ العِمْلاقَةُ بِمَساميرِها الضَّخْمَةِ الصَّدِئَةِ وَسَطَ تَهْليلِ الجُنودِ الَّذينَ يَعْرِفونَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ . وَسَرْعانَ ما سارَ هَمْدان وَسطَهُمْ إلى حُجْرَةِ القائِدِ الَّذي صُدِمَ عِنْدَما أَدْرَكَ أَنَّهُ سَيَتَحَوَّلُ إلى مُساعِدٍ لِهَمْدان مَرَّةً أُخْرى ، لَكِنَّ هَمْدان بِنُعومَتِهِ الثُّعْبانِيَّةِ طَيَّبَ خاطِرَهُ ، وَأَفْهَمَهُ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ البابَ عَلَيْهِما أَنَّهُ سَيَتَوَلّى القِيادَةَ لِمُدَّةِ عامٍ واحِدٍ فَقَطْ طِبْقًا لأَمْرِ المَلِكِ ، وَرُبَّما أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ لَوْ نَجَحَ في إِتْمامِ الْمُهِمَّةِ الَّتي جاءَ مِنْ أَجْلِها .

وَعِنْدَما سَأَلَهُ عَنْ أَبْعادِ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ وَعَدَهُ بِأَنَّهُ سَيُصارِحُهُ بِها في الوَقْتِ الْمُناسِبِ ، وَعَلَيْهِما الآنَ أَنْ يَأْخُذا فَوْرًا في تَدْريبِ الجُنودِ عَلى مَهامَّ جَديدَةٍ .

وطَلَبَ هَمْدان مَزيدًا مِنَ الْمُكافَآتِ لِجُنودِهِ ، وَلَمْ

يَبْخَلِ الْمَلكُ عَلَيْهِ ، فَسَرَتْ روحٌ جَديدَةٌ في الْمُعَسْكَرِ ، وجَرَتِ التَّدريباتُ الشّاقَّةُ عَلى قَدَم وَساق نهارًا ولَيْلاً .

وَلَمْ يَتَوَقَّف مُساعِدُ هَمْدان عَنْ تَساؤُلاتِهِ عَنِ السِّرِّ في هَذِهِ التَّحَوُّلاتِ الجارِيَةِ ، بِرَغْم إيمانه بِأَنَّ الجُنودَ يَجِبُ أَنْ يَكونوا في حالَةِ تَأَهُّب دائم لِتَلْبِيَةِ النِّداء في أَيَّةِ لَحْظَةٍ . وَكانَ هَمْدان قَدْ عَيَّنَ أَرْبعَةً مِنَ أَتْباعِهِ عُيونًا عَلى مُساعِدِه لِيَرْصُدوا حَرَكاتِهِ وَسَكَناتِه ؛ إِذْ لا يُعْقَلُ أَنْ يُفْلِتَ زِمامُ الأُمورِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مَرَّةً أُخْرى .

١٣

لَمْ يَسْتَطِع الحَكيمُ بُرْهان أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ مِهْنَتِهِ في مُعالَجَةِ الفُقَراءِ وَالضُّعَفاءِ . ولَمْ يَتَقَبَّلِ الْمَلِكُ بِسُهولَةٍ إِصْرار بُرْهان عَلى مُواصَلَةِ مِهْنَتِهِ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ زَوْجًا لابْنَتِهِ وَ وَلِيّا لِعَهْده ؛ إِذْ يَكْفيهِ أَنْ يُمارِسَ الطِّبَّ داخِلَ القَصْرِ . فَلا يُعْقَلُ أَنْ يَتْرُكَ القَصْرَ كُلَّ يَوْم لِيَذْهَبَ إلى صَوْمَعَتِهِ في قَلْبِ الصَّحْراءِ ، في حين أَنَّهُ يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَدَرَّبَ على مُمارَسَةِ الشُّئونِ السِّياسِيَّةِ وَتَصْريفِ أُمورِ

الدَّوْلَةِ خاصّةً بَعْدَ غِياب هَمْدان . وَمَعَ ذَلكَ أَقْنَعَ بُرْهان الْمَلكَ يونان بِأَنَّهُ مِنَ السَّهْلِ أنْ يَنْقُلَ صَوْمَعَتَهُ إلى أَحَدِ الْمَباني القائِمَةِ عِنْدَ الجُدْرانِ الخَلْفِيَّةِ لِلْقَصْرِ ، وَهَذا مِنْ شَأنِهِ أَنْ يُضاعِفَ مِنْ حُبِّ الفُقَراءِ وَالْمُعْوزِينَ لَهُ، مِمّا يُرَسِّخُ دعائِمَ مُلْكِهِ . يَكْفي أَنْ يُصْبِحَ قَصْرُهُ قِبْلَةَ الْمُحْتاجِينَ وَالْمَرْضَى وَالبُؤَساءِ الَّذينَ يَعْتَقِدُ أَنَّ دَعَواتِهِمُ الحارَّةَ للهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى ، لا تَذْهَبُ أَدْراجَ الرِّياحِ .

لَمْ يُقاوِمِ المَلِكُ حُجَجَ بُرْهان القَوِيَّةَ ؛ إذْ كانَ يُحِسُّ إِحْساسًا عَمِيقًا بِأَنَّ البَرَكَةَ قَدْ حَلَّتْ بِقَصْرِهِ يَوْمَ مَجيئِهِ وَزَواجِهِ مِن ابْنَتِهِ ، بالإضافَةِ إلى وَعْيِهِ السِّياسِيِّ الفِطْرِيِّ الَّذي دَفَعَهُ إلى تَحْذيرِهِ مِنْ هَمْدان الَّذي لا يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ قَد ابْتَعَدَ بِهَذِهِ البَساطَةِ !

سَعِدَ الْمَلِكُ بِمُلاحَظَةِ بُرْهان العَميقَةِ الواعِيَةِ ، فَطَمْأَنَهُ بِأَنَّهُ يُسَيْطِرُ على الأُمورِ في مَمْلَكَتِهِ .

ولَمْ يَشَأْ بُرْهان أَنْ يُصارِحَ الْمَلِكَ بما فَعَلَهُ مَعَهُ هَمْدان عِنْدَ البِئْرِ . فَهُوَ لا يَزالُ يَلْتَزِمُ بِوَعْدِهِ لَهُ ؛ فَقَدْ كانَ يُعامِلُ الآخَرِينَ مِنْ مُنْطَلَقِ مَبادِئِهِ هُوَ ولَيْسَ عَلى أَساسِ

سُلوكِهِمْ نَحْوَهُ . وَمَعَ ذَلِكَ تَوَجَّسَ خِيفَةً مِنْ هَمْدان بِرَغْمِ بُعْدِهِ عَنِ القَصْرِ .

لَكِنْ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَ هَمْدان ؟ إِنَّهُ لَنْ يَقْضِيَ عُمْرَهُ كُلَّهُ في مُعَسْكَرِ الْمُرْتَزِقَةِ . كانَ هَذا هُوَ السُّؤالُ الَّذي أَلَحَّ عَلى ذِهْنِ بُرْهان ، الَّذي لَمْ تَعُدِ العُلومُ الطِّبِّيَّةُ وَالفَلْسَفَةُ وَالحِكْمَةُ هِيَ شُغْلَهُ الشّاغِلَ الوَحيدَ .

١٤

مَعَ غُروبِ الشَّمْسِ في الْمُعَسْكَرِ جَمَعَ هَمْدان جُنودَهُ عَلى ضَوْءِ الْمَشاعِلِ . وَكانَ تَدْريبُهُمُ الشّاقُّ الَّذي اسْتَغْرَقَ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ قَدْ أَتى بِنَتائِجَ باهِرَةٍ في كُلِّ فُنونِ القِتالِ وَالسِّباحَةِ وَالغَوْصِ وَتَسَلُّقِ كُلِّ العَوائِقِ . وَكانَ هَمْدان سَعيدًا لِهَذِهِ النَّتائِجِ الباهِرَةِ وَبِخاصَّةٍ ارْتِباطُ الجُنودِ بِهِ بَعْدَ أَنْ نَجَحَ في تَلْبِيَةِ كُلِّ طَلَباتِهِمْ .

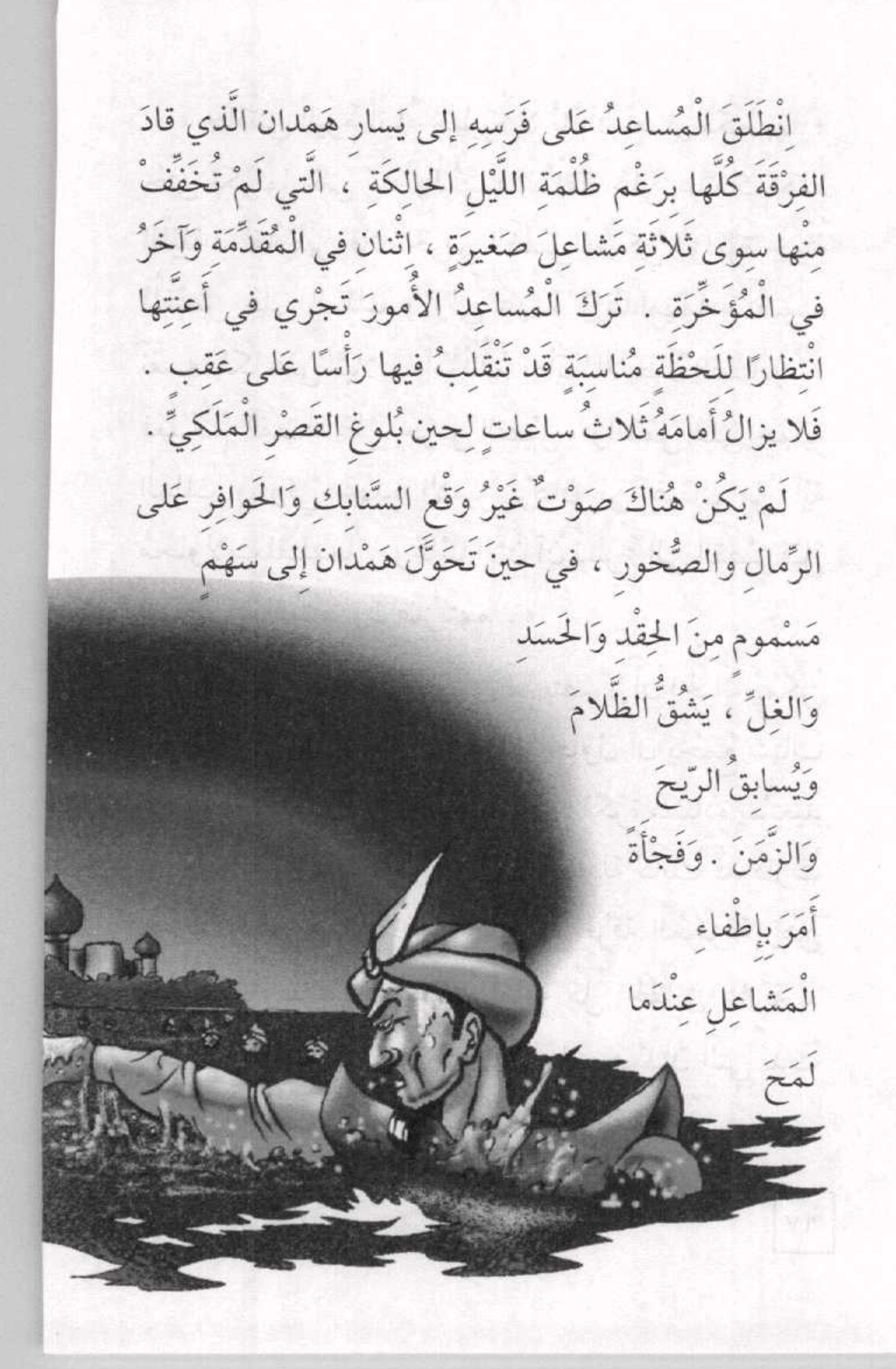
جَلَسَ الجُنودُ أَمامَهُ وَقَدْ خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلى رُؤوسِهِمْ في انْتِظارِ أَوامِرِهِ ، في حينَ بَدا مُساعِدُهُ عَلى يَمينِهِ قَلِقًا بَعْضَ الشَّيْءِ . قالَ هَمْدان بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ :

« جاءَتْني اليَوْمَ أَنْباءٌ خَطيرَةٌ لا بُدَّ أَنْ أُصارِحَكُمْ بها ؛ حَتّى تَكونوا عَلى بَيِّنَةٍ بِالْمُهِمَّةِ الْمُلْقاةِ عَلى عاتِقِكُمْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . لَقَدْ دَبَّرَ قائِدُ حَرَسِ القَصْرِ الْمَلَكِيِّ مُؤامَرَةً خَبيثَةً لِلْقَبْضِ عَلى الْمَلِكِ وَ وَلِيِّ عَهْدِهِ وَإِعْدامِهِما وَتَنْصيبِ نَفْسِهِ مَلِكًا عَلى البِلادِ . أَمّا أَنْتُمْ ، أَيُّها الأَبْطالُ الصَّناديدُ ، فَعَلَيْكُمُ القَضاءَ عَلى حَرَسِ القَصْرِ ، والعَمَلَ عَلى حِمايَةِ الْمَلِكِ وَ وَلِيِّ عَهْدِهِ الأَميرِ بُرْهانِ بْنِ غَسّانَ مِنْ أَيَّةِ مُحاوَلاتٍ لِقَتْلِهِما . وعَلَيْنا الآنَ أَنْ نُسْرِعَ إِلى القَصْرِ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ الْمُتآمِرونَ ضَرْبَتَهُمْ . »

أُسْقِطَ في يَدِ مُساعِدِهِ الَّذي لَمْ يَتَصَوَّرْ أَنَّ الخِيانَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ إِلى هَذا الحَدِّ الْمُذْهِلِ . حاوَلَ أَنْ يَجْمَعَ شَتاتَ تَفْكيرِهِ لَعَلَّهُ يَعْثُرُ عَلى خُطَّةٍ أَوْ مُجَرَّدِ فِكْرَةٍ مُضادَّةٍ يَسْتَعيدُ بِها جُزْءًا مِنْ زِمامِ الأُمورِ ، لَكِنَّ العَجَلَةَ كانَتْ قَدْ دارَتْ بَعْدَ أَنْ نَجَحَ هَمْدانُ في وَضْعِ كُلِّ فِرْقَةِ الْمُرْتَزِقَةِ رَهْنَ إِشارَتِهِ . وَساعَتَها تَكَشَّفَتْ أَمامَهُ كُلُّ الحَقائِقِ عارِيَةً ، وَاسْتَطاعَ أَخيرًا أَنْ يُفَسِّرَ كُلَّ تَلْميحاتِ هَمْدانَ الَّتي بَدَتْ عابِرَةً وَعَفْوِيَّةً ، لَكِنَّها كانَتْ مُخَطَّطَةً وَمَقْصودَةً .

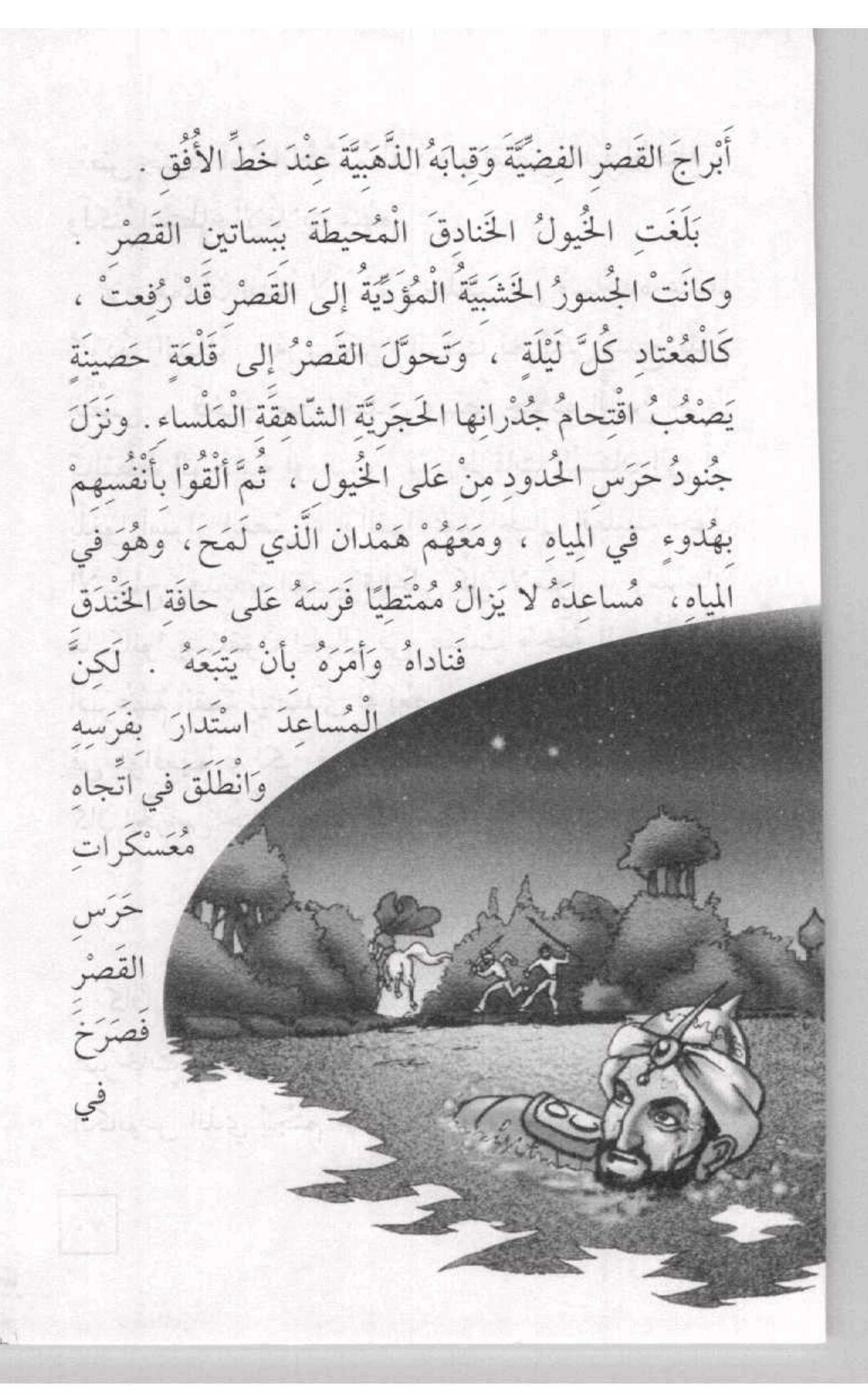
انْطَلَقَ الْمُساعِدُ عَلى فَرَسِهِ إلى يَسارِ هَمْدان الَّذي قادَ الفِرْقَةَ كُلَّها بِرَغْمِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الحالِكَةِ ، الَّتي لَمْ تُخَفِّفْ مِنْها سِوى ثَلاثَةِ مَشاعِلَ صَغيرَةٍ ، اثْنانِ في الْمُقَدِّمَةِ وَآخَرُ في الْمُؤَخِّرَةِ . تَرَكَ الْمُساعِدُ الأُمورَ تَجْري في أَعِنَّتِها انْتِظارًا لِلَحْظَةٍ مُناسِبَةٍ قَدْ تَنْقَلِبُ فيها رَأْسًا عَلى عَقِبٍ . فَلا يَزالُ أَمامَهُ ثَلاثُ ساعاتٍ لِحينِ بُلوغِ القَصْرِ الْمَلَكِيِّ .

لَمْ يَكُنْ هُناكَ صَوْتٌ غَيْرُ وَقْعِ السَّنابِكِ وَالحَوافِرِ عَلى الرِّمالِ والصُّخورِ ، في حينَ تَحَوَّلَ هَمْدان إِلى سَهْمٍ مَسْمومٍ مِنَ الحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالغِلِّ ، يَشُقُّ الظَّلامَ وَيُسابِقُ الرّيحَ وَالزَّمَنَ . وَفَجْأَةً أَمَرَ بِإِطْفاءِ الْمَشاعِلِ عِنْدَما لَمَحَ



أَبْراجَ القَصْرِ الفِضِّيَّةَ وَقِبابَهُ الذَّهَبِيَّةَ عِنْدَ خَطِّ الأُفُقِ .

بَلَغَتِ الخُيولُ الخَنادِقَ الْمُحيطَةَ بِبَساتِينِ القَصْرِ . وكانَتْ الجُسورُ الخَشَبِيَّةُ الْمُؤَدِّيَةُ إلى القَصْرِ قَدْ رُفِعتْ ، كَالْمُعْتادِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَتَحوَّلَ القَصْرُ إلى قَلْعَةٍ حَصينَةٍ يَصْعُبُ اقْتِحامُ جُدْرانِها الحَجَرِيَّةِ الشّاهِقَةِ الْمَلْساءِ . وَنَزَلَ جُنودُ حَرَسِ الحُدودِ مِنْ عَلى الخُيول ، ثُمَّ أَلْقَوْا بِأَنْفُسِهِمْ بِهُدوءٍ في المِياهِ ، وَمَعَهُمْ هَمْدان الَّذي لَمَحَ ، وهُوَ في المِياهِ ، مُساعِدَهُ لا يَزالُ مُمْتَطِيًا فَرَسَهُ عَلى حافَةِ الخَنْدَقِ فَناداهُ وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَتْبَعَهُ . لَكِنَّ الْمُساعِدَ اسْتَدارَ بِفَرَسِهِ وَانْطَلَقَ في اتِّجاهِ مُعَسْكَراتِ حَرَسِ القَصْرِ فَصَرَخَ في



بَعْضِ جُنودِهِ آمِرًا إيّاهُمْ بِمُطارَدَتِهِ وَالقَبْضِ عَلَيْهِ أَوْ قَتْلِهِ ، ولَكِنَّهُ اسْتَطاعَ الإفْلاتَ مِنْهُمْ .

لامَ هَمْدان نَفْسَهُ لأَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْ مُساعِدِهِ عِنْدَما راوَدَهُ الشَّكُّ فيهِ ، لَكِنَّ الوَقْتَ لَمْ يَكُنْ يَتَّسِعُ لِلَوْمِ النَّفْسِ ، فَخَرَجَ مِنَ الخَنْدَقِ وَسَطَ جُنودِهِ الَّذينَ جَرَوْا كَالقِطَطِ الوَحْشِيَّةِ أَوِ النُّمورِ بَيْنَ طُرُقاتِ البُسْتانِ إلى أَنْ بَلَغوا أَسْوارَ القَصْرِ ، وَأَلْقَوْا عُقَدَ الحِبالِ الغَليظَةَ حَوْلَ الأَسْياخِ الحَديدِيَّةِ القَصيرَةِ أَعْلى كُلِّ الأَسْوارِ . وَسَرْعانَ ما كانوا يَتَسَلَّقونَ الحِبالَ في صَمْتٍ وَخِفَّةٍ إلى أَنْ بَلَغَ أَسْرَعُهُمُ القِمَّةَ لِيَتَصَدّى لَهُ بَعْضُ حُرّاسِ اللَّيْلِ الْمُرابِطينَ في مَواقِعِهِمْ ، لَكِنْ في لَحَظاتٍ وَبَعْدَ صَرَخاتٍ مَكْتومَةٍ كانَ الحُرّاسُ جُثَثًا هامِدَةً أُلْقِيَتْ خارِجَ الأَسْوارِ .

١٥

كانَ الْمَلِكُ يونان يَغِطُّ في نَوْمِهِ ، فَسَمِعَ أَصْواتَ صَرَخاتٍ مَكْتومَةٍ ، فَتَقَلَّبَ في فِراشِهِ لَعَلَّهُ يَتَخَلَّصُ مِنَ الكابوسِ الَّذي يَجْثُمُ على أَنْفاسِهِ . تَكَرَّرَتِ الصَّرَخاتُ

الْمَكْتومَةُ وَمَعَها هَذِهِ الْمَرَّةَ أَصْواتُ ضَرَباتِ سُيوفٍ عَلى سُيوفٍ وَخَناجِرَ عَلى خَناجِرَ ، ثُمَّ رانَ السُّكونُ مَرَّةً أُخْرى ، فَانْتَفَضَ الْمَلِكُ جالِسًا في فِراشِهِ وَهُوَ يَقولُ دونَ أَنْ يَصِلَ إلى اليَقَظَةِ الكامِلَةِ :

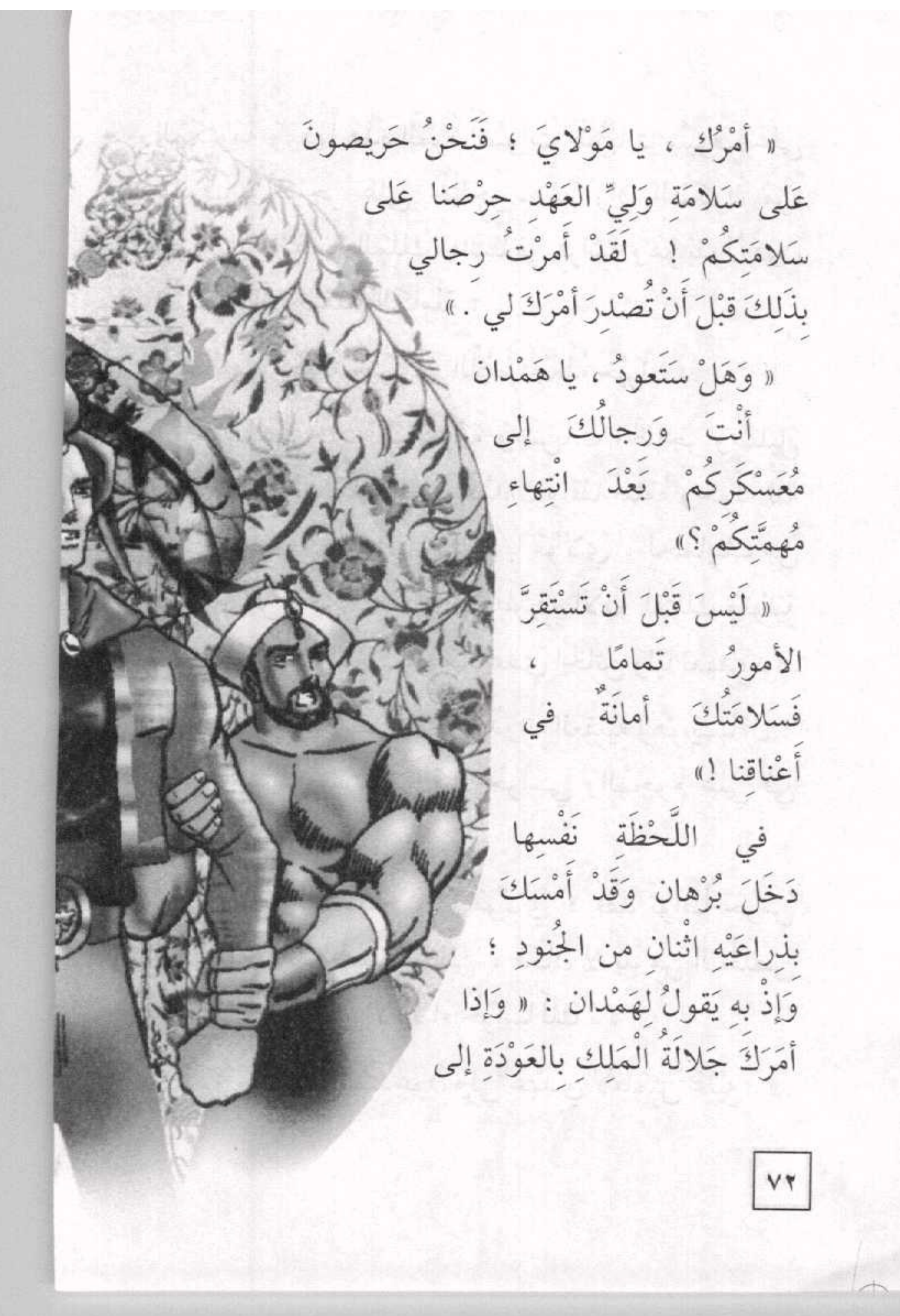
« اللّهُمَّ اجْعَلْهُ خَيْرًا . . اللّهُمَّ اجْعَلْهُ خَيْرًا . »

لَكِنَّ الصَّرَخاتِ الْمَكْتومَةَ وَضَرَباتِ الخَناجِرِ وَصَليلَ السُّيوفِ أَيْقَظَهُ تَمامًا لِيَجِدَ هَمْدان واقِفًا أَمامَهُ وَحَوْلَهُ ثُلَّةٌ مِنَ الجُنودِ وقالَ لَهُ : « جِئْنا ، يا مَوْلايَ ، لِحمايَتِكَ مِنْ قائِدِ الجَيْشِ الخائِنِ الَّذي في طَريقِهِ الآنَ لِقَتْلِكَ وَتَوْلِيَةِ نَفْسِهِ مَلِكًا عَلى البِلادِ ، وَمُساعِدي الخائِنِ وَلِيًّا لِعَهْدِهِ . »

حاولَ الْمَلِكُ اسْتِدْعاءَ كُلِّ قُدُراتِهِ العَقْلِيَّةِ وَهُوَ يَتَساءَلُ : « هَلْ حِمايَتي تَسْتَدْعي قَتْلَ حُرّاسي وَالهُجومَ عَلَيَّ في مِخْدَعي ؟ »

« لِلضَّرورَةِ أَحْكامٌ ، يا مَوْلايَ ؛ فَقَدْ تَواطَأَ حَرَسُ القَصْرِ مَعَ قائِدِ الجَيْشِ الخائِنِ ، فَكانَ لا بُدَّ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنْهُ لِيُصْبِحَ جُنودي الأَوْفِياءُ حُرّاسًا لَكَ . »

« دَعْ حُرّاسَكَ يَسْتَدْعونَ وَلِيَّ عَهْدي لأَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ . »



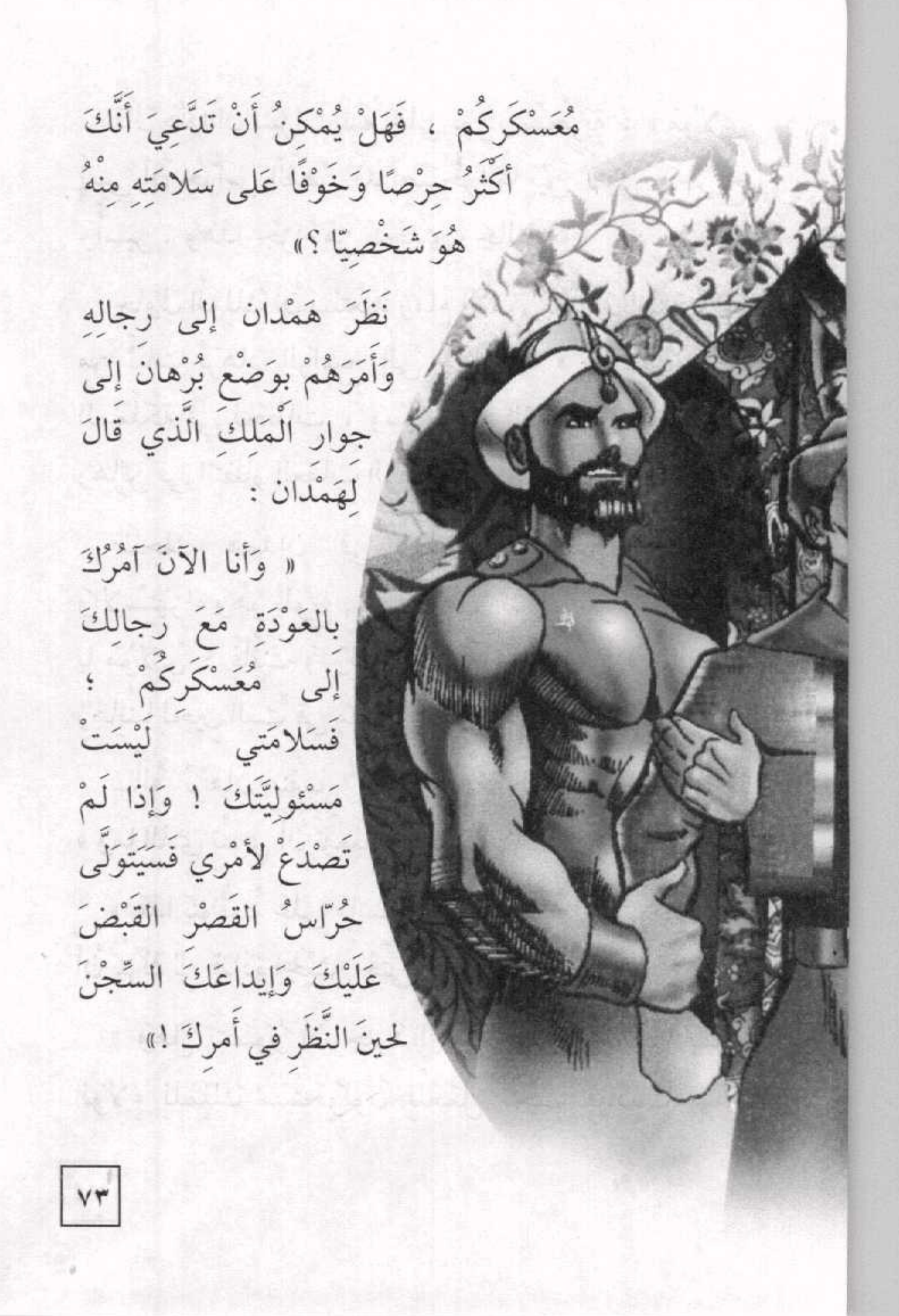
« أمْرُكَ ، يا مَوْلايَ ؛ فَنَحْنُ حَريصونَ عَلى سَلامَةِ وَلِيِّ العَهْدِ حِرْصَنا عَلى سَلامَتِكُمْ ! لَقَدْ أمَرْتُ رِجالي بِذَلِكَ قبْلَ أَنْ تُصْدِرَ أمْرَكَ لي . »

« وَهَلْ سَتَعودُ ، يا هَمْدان أنْتَ وَرِجالُكَ إلى مُعَسْكَرِكُمْ بَعْدَ انْتِهاءِ مُهِمَّتِكُمْ ؟»

« لَيْسَ قَبْلَ أنْ تَسْتَقِرَّ الأمورُ تَمامًا ، فَسَلامَتُكَ أمانَةٌ في أَعْناقِنا !»

في اللَّحْظَةِ نَفْسِها دَخَلَ بُرْهان وَقَدْ أَمْسَكَ بِذِراعَيْهِ اثْنانِ من الجُنودِ ؛ وَإذْ بِهِ يَقولُ لِهَمْدان : « وَإذا أمَرَكَ جَلالَةُ الْمَلِكِ بِالعَوْدَةِ إلى

مُعَسْكَرِكُمْ ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَدَّعِيَ أَنَّكَ
أَكْثَرُ حِرْصًا وَخَوْفًا على سَلامَتِهِ مِنْهُ
هُوَ شَخْصِيًّا ؟ »



نَظَرَ هَمْدان إلى رجالِهِ
وَأَمَرَهُمْ بِوَضْعِ بُرْهان إلى
جوارِ الْمَلِكِ الَّذي قالَ
لِهَمْدان :

« وَأنا الآنَ آمُرُكَ
بِالعَوْدَةِ مَعَ رجالِكَ
إلى مُعَسْكَرِكُمْ ؛
فَسَلامَتي لَيْسَتْ
مَسْئوليَّتَكَ ! وَإذا لَمْ
تَصْدَعْ لأمْري فَسَيَتَوَلَّى
حُرّاسُ القَصْرِ القَبْضَ
عَلَيْكَ وَإيداعَكَ السِّجْنَ
لِحينِ النَّظَرِ في أَمرِكَ ! »

قالَ هَمْدان بنَبَراتٍ تَنِمُّ عَلى بَوادِرِ سُخْرِيَةٍ : « مَوْلايَ نَسِيَ أَنَّ حُرّاسَ القَصْرِ قَدْ أصْبَحُوا ما بَيْنَ قَتيلٍ وَجَريحٍ وَأَسيرٍ ، وَهَذا جَزاءُ مَنْ يَتَحَدَّى رِجالَنا ! »

حاوَلَ الْمَلِكُ أَنْ يَسْتَعيدَ زِمامَ الأُمورِ بَعْدَ أن اسْتَمَدَّ ثِقَةً مِنْ ثَباتِ بُرْهان الرّاسِخِ إلى جِوارِهِ : « سَيَصِلُ جَيْشُ الْمَمْلَكَةِ في لَحَظاتٍ ، وَسَيُحاصِرُ القَصْرَ لِيَجْعَلَ مِنْكُمْ رَهائِنَ في انْتِظارِ العِقابِ الرَّهيبِ الَّذي سَيَحِلُّ بِكُمْ ! »

ضَحِكَ هَمْدان في جَلْجَلَةٍ صاخِبَةٍ بالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزاءِ وَهُوَ يُلَوِّحُ بِسَيْفِهِ : « لا تَتَكَلَّمْ عَنِ الرَّهائِنِ ، يا مَوْلايَ ؛ فَأَنْتَ وَ وَلِيُّ عَهْدِكَ وَجَميعُ مَنْ في القَصْرِ رَهائِنُنا لِحينِ البَتِّ في مَصائِرِكُمْ ! »

سَأَلَهُ بُرْهان بِنَفْسِ اليَقينِ وَالثِّقَةِ الْمُسْتَفِزَّةِ لِهَمْدان : « وَما الَّذي تَنْوي أَنْ تَفْعَلَهُ بِمَصائِرِنا ؟ »

« هَذا يَتَوَقَّفُ عَلى ما سَوْفَ يَفْعَلُهُ قائِدُ الجَيْشِ ! لا بُدَّ أَنْ يَتْرُكَ لي قِيادَةَ الجَيْشِ حَتّى أفْرِجَ عَنْكُمْ ! »

« وَهَلْ تَتَصَوَّرُ أنَّ جُنودَ الجَيْشِ الَّذينَ أَقْسَمُوا يَمينَ الوَلاءِ لِلْمَلِكَ سَيَتَحَوَّلونَ لِلْعَمَلِ تَحْتَ قِيادَتِكَ بِهَذِهِ

البَساطَةِ ؟»

« إذًا . . سَتَكونُ حَياتُكُمُ الثَّمَنَ !»

« وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّكَ سَتُفْلِتُ بِفَعْلَتِكَ هَذِهِ ؟»

« أنا بالذّاتِ لَنْ أخْسرَ شَيْئًا ، لَكِنَّكَ أنْتَ بِالذّاتِ سَتَخْسرُ كُلَّ شَيْءٍ !»

« تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْصُلَ مِنَ الْمَلِكِ عَلى وَعْدٍ بالخُروجِ أنْتَ وَرِجالُكَ سالِمًا مِنْ هُنا . وَأَنْتَ تُدْرِكُ جَيِّدًا مَدى تَقْديسِ جَلالَتِهِ لِوَعْدِهِ . »

« لَنْ تُصْبِح حَياتِيَ خَسائِرَ مُتَّصِلَةً !»

« لَكِنَّكَ سَتَخْسرُ حَياتَكَ نَفْسَها ، فَمَنْ لَمْ يَنْظُرْ في العَواقِبِ فَما الدَّهْرُ لَهُ بِصاحِبٍ . وَإذا قَتَلْتَنا وَنَجَوْتَ بِحَياتِكَ فَسَتَنْدَمُ كَما نَدِمَ الْمَلِكُ السِّنْدِبادُ عَلى قَتْلِ الباز ، وَأَنْتَ تُدْرِكُ جَيِّدًا مَدَى تَأْثيري !»

حاوَلَ هَمْدان أَنْ يُقاوِمَ النَّظَراتِ الْمُشِعَّة الَّتي سَلَّطَها بُرْهان عَلَيْهِ فَحَرَصَ عَلى أَنْ يَشْحَنَ نَبَراتِهِ بِنَغْمَةِ التَّحَدّي الصّارِمِ : « إيّاكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ أَنَّكَ قادِرٌ عَلى تَخْويفي بِقُوَّةِ

تَأْثيرِكَ ! فَأَنْتَ الآنَ تَحْتَ رَحْمَتي !»

« أَنْتَ خَيْرُ مَنْ يُدْرِكُ قُوَّةَ تَأْثيري مُنْذُ سُقوطي في البِئْرِ الْمَهْجورَةِ . لَكِنَّكَ هَذِهِ الْمَرَّةَ إذا قَتَلْتَنا فَسَتَنْدَمُ . »

قاطَعَهُ هَمْدان وَقَد اسْتَبَدَّ بِهِ خَوْفٌ دَفينٌ : « أَنْتَ تُريدُ إِضاعَةَ الوَقْتِ حَتّى وُصولِ الجَيْشِ لإِنْقاذِكَ أَنْتَ وَالْمَلِكَ مِنْ يَدي . »

« أَ لَمْ نَتَّفِقْ أَنَّنا رَهائِنُ بيْنَ يَدَيْكَ ؟! وَإِذا قَتَلْتَنا فَسَيُهاجِمُكَ جُنودُ الجَيْشِ أَنْتَ وَرِجالَكَ ، وَعِنْدَئِذٍ لَنْ تَجِدَ مَنْ تَحْتَمي بِهِ . »

« إذا كُنْتَ تَعْتَقِدُ أَنَّنا نَحْتَمي بِكُمْ فَسَنَقْتُلُكُمُ الآنَ قَبْلَ وُصولِ الجَيْشِ وَكَفانا مَضْيَعَةً لِلْوَقْتِ . »

ثُمَّ أَشارَ إلى رِجالِهِ بِحَرَكَةٍ تَعْني ضَرْبَ عُنُقي الْمَلِكِ يونان وَالحَكيم بُرْهان وَلِيِّ عَهْدِهِ . فَتَقَدَّمَ كَبيرُهُمْ وَمَعَهُ آخَرُ ، وَ وَضَعا سَيْفَيْنِ عَلى عُنُقِهِما ، لَكِنَّ بُرْهان قالَ لِلْجُنودِ الواقِفينَ بِمُنْتَهَى الثَّباتِ وَالتَّحَدِّي :

« أَنْتُمْ تُحارِبونَ مِنْ أَجْلِ المالِ الَّذي وَعَدَكُمْ بِهِ

هَمْدان ؛ فَإذا انْحَزْتُمْ لِمَوْلانا الْمَلِكِ فَسَيُغْدِقُ عَلَيْكُمْ مِنْ خَزائِنِهِ كُلَّ الذَّهَبِ الَّذي لا يَخْطُرُ لَكُمْ بِبالٍ ! أَمّا هذا البائِسُ الَّذي يَخْدَعُكُمْ بِأَوْهامٍ كاذِبَةٍ فَلَنْ تَنالوا مِنْ وَرائِهِ سِوى الْمَوْتِ وَبِئْسَ النِّهايَةُ . »

صَرَخَ فيهِ هَمْدان عِنْدَما لَمَحَ تَرَدُّدَ الجُنْدِيَّيْنِ في ضَرْبِ عُنُقَيْهِما بِالسَّيْفِ : « لا تُصَدِّقُوا هَذِهِ الأَكاذيبَ ! اِضْرِبوا بِمُنْتَهَى القُوَّةِ كَيْ تُصْبِحوا مِنَ الوُزَراءِ وَأَرْبابِ الدَّوْلَةِ ! »

تَبادَلَ الجُنْدِيّانِ نَظَراتٍ مُتَرَدِّدَةً بِرَغْمِ أَوامِرِ هَمْدانِ الَّتي تَحَوَّلَتْ إلى صَرَخاتٍ طَغَتْ عَلَيْها أَصْواتُ سَنابِكَ وَأَبْواقٍ ، فَأَدْرَكَ جَميعُ الحاضِرينَ أَنَّ الجَيْشَ يُحاصِرُ الْمُتَآمِرينَ داخِلَ القَصْرِ .

قالَ بُرْهانِ وَ وَميضٌ مُخيفٌ يُشِعُّ مِنْ عَيْنَيْهِ : « إذا قَتَلْتَنا فَسَيَقْتُلُكَ قائِدُ الجَيْشِ وَيُنَصِّبُ نَفْسَهُ مَلِكًا ، وَلَنْ يَنْجُوَ جُنْدِيٌّ واحِدٌ مِنْ جُنودِكَ مِنَ المَذْبَحَةِ الَّتي سَيَعْقِدُها لَكُمْ جَميعًا . »

« سَنُحارِبُهُمْ حَتّى آخِرِ رَجُلٍ . »

« حَتّى آخِرِ رَجُلٍ مِنْكُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ؛ فَعَدَدُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ

أَنْ يُحْصَى . »

« وَهَلْ لَدَيْكَ حَلٌّ آخَرُ ؟ ! »

عِنْدَئِذٍ أدْرَكَ بُرْهان أَنَّ هَمْدان فَقَدَ زمامَ الْمُبادَرةِ تمامًا ، فَقَالَ لَهُ : «دَعْني أُسَوِّ الأَمْرَ مَعَ قائدِ الجَيْشِ وَسَأُخْرِجُكَ مِنْ هُنا سَليمًا كَالشَّعْرَةِ مِنَ العَجينِ . »

« بالإضافَةِ إلى حُصولِنا عَلى كُلِّ أكْياسِ الذَّهَبِ الْمَوْجودَةِ في خِزانَةِ القَصْرِ الْمَلَكِيِّ ، فَمَهْما تَكُنْ كَثيرَةً فَلَنْ تَكونَ أَغْلى مِنْ حَياةِ الْمَلِكِ وَحَياةِ وَلِيِّ عَهْدِهِ . »

ثُمَّ أَشارَ هَمْدان لِلْجُنْدِيَّيْنِ بالابْتِعادِ عَنْهُما بسَيْفَيْهِما ، فَنَفَّذا الأَمْرَ وَ وَميضُ السَّعادَةِ يَلْمَعُ في عُيونِ الْمُتَآمِرينَ بَعْدَ سَماعِهِمُ الكَلِماتِ الَّتي تَعِدُ بالذَّهَبِ . ونَهَضَ بُرْهان لِيُطِلَّ مِنْ شُرْفَةِ الغُرْفَةِ مَعَ أَوَّلِ خُيوطِ الفَجْرِ وَهُوَ يَقولُ مُطَمْئِنًا قائدَ الجَيْشِ إلى أَنَّ الأَزْمَةَ سَتُسَوَّى بدونِ إراقَةِ الدِّماءِ ، فَجاءَ صَوْتُ قائِدِ الجَيْشِ مُدَوِّيًا أسْفَلَ جُدْرانِ القَصْرِ :

« لَنْ نَفُكَّ الحِصارَ إلا بَعْدَ وَضْعِ الأُمورِ في نِصابِها . »

عادَ بُرْهان لِيَجْلِسَ إلى جوارِ الملكِ الَّذي لَمْ يُصَدِّقْ ما رَأَتْهُ عَيْناهُ ، وَما سَمِعَتْ بِهِ أُذُناهُ مِنْ كَلِماتٍ وَمُناوَراتٍ وَتَحَرُّكاتِ هَذا الشّابِّ العَبْقَرِيِّ ، الَّذي اخْتارَهُ زَوْجًا لابْنَتِهِ ، وَ وَلِيًّا لِعَهْدِهِ بِرَغْمِ أَنَّهُ لا يَفْقَهُ في السِّياسَةِ عَلى حَدِّ قَوْلِهِ !

لَوَّحَ هَمْدان بِسَيْفِهِ في الهَواءِ وَهُوَ يَصيحُ في بُرْهان :

« إيّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّكَ انْتَصَرْتَ ، فَأَعْناقُكُمْ تَحْتَ نَصْلِ سُيوفِنا ، وَإِذا بَدَرَتْ أَيَّةُ حَرَكَةٍ تَنِمُّ عَلى الخِيانَةِ وَالغَدْرِ فَسَوْفَ نَجْعَلُ مِنَ القَصْرِ مَجْزَرَةً . »

« أَنْتَ بِالذّاتِ عالِمٌ بِكُلِّ أَسْرارِ الخِيانَةِ وَالغَدْرِ ، وَلَنْ تَفوتَ عَلَيْكَ شارِدَةٌ أَوْ وارِدَةٌ !»

« وَأَنْتَ أَيْضًا ، إِذا كُنْتَ قَدْ أَبْرَأْتَ الْمَلِكَ مِنَ الْمَرَضِ مِنْ ظاهِرِ الجَسَدِ بِشَيْءٍ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ ، فَلا نَأْمَنُ أَنْ تُهْلِكَ أَيَّ عَدُوٍّ آخَرَ بِشَيْءٍ يُمْسِكُهُ بِيَدِهِ أَيْضًا . فَإِذا كُنْتَ تَتَّهِمُني بِخِيانَةِ الْمَلِكِ فَذَلِكَ لأَنَّني صَريحٌ في خُصومَتي ، وَ واضِحٌ كَالسَّيْفِ ، وَيُمْكِنُ التَّعامُلُ مَعي بِسُهولَةٍ ، أَمّا أَنْتَ فَحَيَّةٌ لا تَلْبَثُ أَنْ تَدُسَّ السُّمَّ لِلْمَلِكِ وَتَسْتَوْلِيَ عَلى



كُلِّ شَيْءٍ . »

كانَ نورُ الفَجْرِ قَدْ غَمَرَ الشُّرْفَةَ وَإِذْ بِسَهْمٍ صَغيرٍ يَخْتَرِقُها وَفي ذَيْلِهِ وَرَقَةٌ صَغيرَةٌ ، فَأَسْرَعَ هَمْدان بِفَضِّها بِمُجَرَّدِ وُقوعِ السَّهْمِ على الأَرْضِ ، وَقَرَأَها بِصَوْتٍ عالٍ :

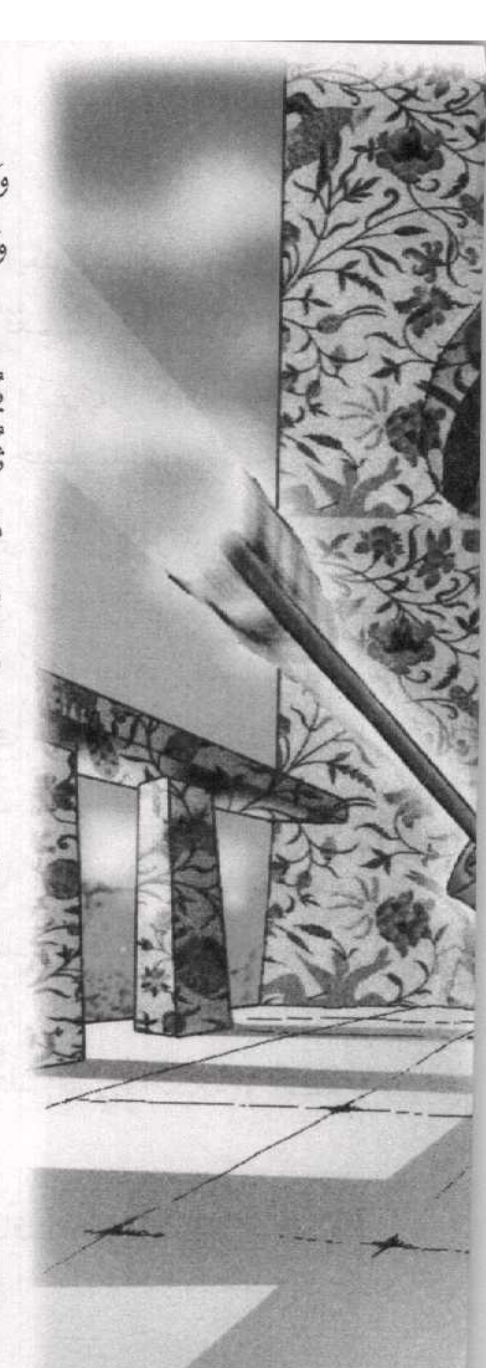
« مِنْ قائِدِ جَيْشِ الْمَمْلَكَةِ إلى مَوْلانا المَلِكِ الْمُفَدَّى . إِنَّ الجَيْشَ عَلى اسْتِعدادٍ لِلتَّدَخُّلِ في أَيَّةِ لَحْظَةٍ . لَنْ نَتْرُكَكُمْ رَهائِنَ تَحْتَ رَحْمَةِ هَؤُلاءِ الْمُتَآمِرينَ السَّفَلَةِ . وَمِنَ الأَفْضَلِ أَنْ نَهْجُمَ الآنَ ، فَإِذا لَمْ نَتَلَقَّ إِشارَةً تُفيدُ وَضْعَ الأُمورِ في نِصابِها ، فَسَنَهْجُمُ في ظَرْفِ لَحَظاتٍ . »

أَطْلَقَ هَمْدان ضَحكَةً مُجَلْجِلَةً

وَهُوَ يُلَوِّحُ بِالوَرَقَةِ بِذِراعِهِ وَيَقولُ :

« ها هُوَ ذا قائِدُ الجَيْش يُريدُ أَنْ يَهْجُمَ حَتّى نَقْتُلَكُمْ ثُمَّ يَقْتلونا وَيُنَصِّبَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلى البِلادِ ، كَما قُلْتُ لَكُمْ تَمامًا . إِنَّها فُرْصَةُ عُمْرِهِ الَّتي يَجِبُ أَنْ نفوِّتَها عَلَيْهِ . »

نَهَضَ المَلِكُ يونان لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ بِدايَةِ الكارِثَةِ و اتَّجَهَ نحو الشُّرْفَةِ دونَ أَنْ يَعْبَأَ بِالسُّيوفِ المُوَجَّهَةِ إِلَيْهِ ،



وَصاحَ مُنادِيًا قائدَ جَيْشِهِ :

« أيُّ تَدَخُّلٍ مِنْكُمْ لا يَعْني سِوى مَوْتِنا ، وَنَحْنُ قادِرونَ عَلى مُعالَجَةِ الْمَوْقِفِ بِما فيهِ سَلامَةُ الجَميعِ . وَهَمْدان وَزيري، وَلا يَزالُ وَزيري ، الَّذي يُطيعُ أَوامِرِي دونَ مُناقَشَةٍ . اِسْتَمِرّوا في الحِصارِ بِدونِ أيِّ تَدَخُّلٍ . »

عادَ الْمَلِكُ لِيَجْلِسَ عَلى حافَةِ الفِراشِ وَهُوَ يَتَبادَلُ نَظَراتِ الثِّقَةِ وَاليَقينِ مَعَ وَلِيِّ عَهْدِهِ الأَميرِ بُرْهان الَّذي قَفَزَ واقِفًا قَفْزَةً أَرْعَبَتْ هَمْدان الَّذي تَظاهَرَ بِالتَّماسُكِ وَهُوَ يَسْتَمِعُ لِبُرْهان : « إذا كانَتِ السِّياسَةُ قَدْ فَشِلَتْ في حَلِّ الأَزْمَةِ ، فَالطِّبُّ كَفيلٌ بِذلِكَ . »

صاحَ فيهِ هَمْدان مُتَشَنِّجًا : « إيّاكَ أَنْ تُمارِسَ سِحْرًا مِنْ أَيِّ نَوْعٍ وَإِلا ضَرَبْتُ عُنُقَكَ ؛ إِذْ يَبْدو في النِّهايَةِ أَنَّني لَنْ آمَنَ إِلاَّ بَعْد أنْ أَقْتُلَكَ ؛ فَإِنَّكَ أَبْرَأْتَ الْمَلِكَ بِشَيْءٍ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ ، فَلا آمنُ أَنْ تَقْتُلَني بِشَيْءٍ أُمْسِكُهُ أَوْ أَشُمُّهُ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ . »

« لَقَدْ أَمْسَكَ الرُّعْبُ بِخِناقِكَ وَعرَّيْتَ نَفْسَكَ تَمامًا ،

فَأَنْتَ لا تَعْلَمُ ماذا سَأقولُ لِكَيْ تُعَلِّقَ عَلَيْهِ بِمِثْلِ هَذا التَّهَوُّرِ . »

« تَكَلَّمْ ، وسَنَتَبَيَّنُ الكِذْبَ مِنَ الصِّدْقِ . »

« أَنا لا أَكْذِبُ أَبَدًا كَما أَنَّني أحْفَظُ العَهْدَ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ أَحْكِ كَيْفَ دَفَعْتَني بيَدِكَ حَتّى سَقَطْتُ في البِئْرِ ، وَكَيْفَ أَتَيْتَ إلى هُنا بِقِصَّةٍ مُخْتَلَقَةٍ . وَأَنا أعْتَقِدُ أَنَّهُ بَعْدَ ما جَرَى الآنَ فَأَنا في حِلٍّ مِنْ وَعْدي لَكَ . »

« وَأَيْضًا في حِلٍّ لِكَيْ تَكْذِبَ ما شاءَ لَكَ الكَذِبُ ! »

« أَنْتَ تُضَيِّعُ الوَقْتَ فيما لا فائِدَةَ مِنْهُ . وَإذا كُنْتَ خائِفًا مِنْ مُجَرَّدِ الاطِّلاعِ عَلى بَعْضِ صَفَحاتٍ في كِتابٍ طِبِّيٍّ ، فَاسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ مُحَمَّلاً بِكُلِّ الجَرائِمِ الَّتي ارْتَكَبْتَها وَفي مُقَدِّمَتِها مُحاوَلَةُ قَتْلِنا ! »

« مُنْذُ مَتى أَصْبَحَتْ قِراءَةُ كِتابٍ طِبِّيٍّ حَلا لأزْمَةٍ ؟ »

« سَتَرَى بِنَفْسِكَ ؛ فَالطِّبُّ لَيْسَ عِلاجًا لِلْجَسَدِ فَحَسْبُ بَلْ لِلنَّفْسِ أَيْضًا ، وَمَتى شُفِيَتِ النُّفوسُ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُصْبِحُ عَلى ما يُرامُ . »

« وَأَيْنَ يوجَدُ هَذا الكِتابُ الطِّبِّيُّ ؟»

« إِنَّهُ في صَوْمَعَتي عِنْدَ الجِدارِ الخَلْفِيِّ لِلْقَصْرِ . أَسْتَطيعُ أَنْ أَذْهَبَ وَأُحْضِرَهُ في لَحَظاتٍ . »

شَرَعَ بُرْهان في التَّحرُّكِ لَكِنَّ هَمْدان سَرْعانَ ما وَضَعَ طَرَفَ سَيْفِهِ في عُنُقِهِ صارِخًا فيهِ : « إِيّاكَ أَنْ تَتَحَرَّكَ . هَلْ تَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذِهِ الحيلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَنْطَلِيَ عَلَيَّ ؟»

« وَإِيّاكَ أَنْتَ أَنْ تَتَصَوَّرَ أَنَّني مِنَ الجُبْنِ بِحَيْثُ أَهْرُبُ هَكَذا . أَرْسِلْ أَحَدَ رِجالِكَ إِلى الوَصيفَةِ جُلْفَدان لِتُحْضِرَ الكِتابَ ؛ فَهِيَ الوَحيدَةُ الَّتي تَعْرِفُ مَكانَهُ . »

أَشارَ هَمْدان لأَحَدِ رِجالِهِ فَخَرَجَ ثُمَّ سَأَلَ في لَهْفَةٍ : « وَما الَّذي سَوْفَ نَقْرَؤُهُ في هَذا الكِتابِ السِّحْرِيِّ ، الذي سَيَحُلُّ الْمُعْضِلَةَ بِرُمَّتِها ؟»

« كُلُّ ما تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَهُ أَنْ تُقَلِّبَ صَفَحاتِ الكِتابِ فَإِذا وَجَدْتَها بَيْضاءَ فَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تُغادِرَ هَذا الْمَكانَ دونَ أَنْ يَمْسَسْكَ أَذًى . »

« وَإِذا لَمْ أَجِدْها بَيْضاءَ ؟ ماذا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ ؟»

« سَتَجِدُ فيها رَسْمًا عَلى شَكْلِ قَلْبٍ أَحْمرَ ، عِنْدَئِذٍ يُصْبِحُ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَعْتَلِيَ العَرْشَ دونَ مُنازِعٍ ، وَهَذا وَعْدٌ أمامَ مَوْلانا الْمَلِكِ وَجَميعِ الحاضِرينَ هُنا ! »

ظَهَرَ الذُّهولُ عَلى وَجْهِ الْمَلِكِ لَكِنَّهُ آثَرَ الصَّمْتَ ، وَأَصْبَحَ آذانًا مُصْغِيَةً لِهَمْدان الحائِرِ :

« لَكِنَّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَكْتُبَ أَوْ لا تَكْتُبَ ما تَشاءُ عَلى صَفَحاتِ هَذا الكِتابِ ! »

« هَذا الكتابُ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَكْتُبَ فيهِ شَيْئًا ؛ فهُوَ تُراثٌ يُتَناقَلُ بَيْنَ الحُكَماءِ وَالأَطِبّاءِ أَبًا عَنْ جَدٍّ . وَهُوَ لا يُفْتَحُ سِوى مَرَّةٍ واحِدَةٍ كُلَّ خَمْسينَ سَنَةً إذا ما احْتاجَ وَلِيُّ الأَمْرِ أنْ يَحْتَكِمَ إلَيْهِ ، ثُمَّ يُغْلِقُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ مَرَّةً أُخْرى وَيَتَغَيَّرُ ما بِداخِلِهِ دونَ أَنْ يَخُطَّ فيهِ أَحَدٌ كَلِمَةً واحِدَةً . »

« وَماذا يَحْدُثُ لَوْ فُتِحَ قَبْلَ خَمْسينَ سَنَةً ؟ »

« يَتَحَوَّلُ إلى رَمادٍ في يَدِ مَنْ يُحاوِلُ فَتْحَهُ عَنْوَةً . »

« وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَحِلَّ عَلَيْهِ لَعْنَةٌ ما ؟ »

« كُلُّ ما في الأَمْرِ أَنَّهُ لَنْ يَنالَ ما يُريدُ . »

« وَهَلْ مَرَّتْ خَمْسونَ سَنَةً عَلى آخِرِ مَرَّة فُتِحَ فيها ؟ »

« هَذا الكتابُ مِنْ حُسْنِ حَظِّك ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ مِنْ قَبْلُ ؛ وَلِذَلِكَ فَأَنْتَ عَلى أَسْوَإِ الفُروضِ أَصْبَحْتَ ضامِنًا لِسَلامَةِ حَياتِكَ وَعَوْدَتِكَ آمِنًا ، وَرُبَّما سَمَحَ مَوْلانا الْمَلِكُ بإعادَتِكَ إلى كُرْسِيِّ الوزارَةِ بَعْدَ أداءِ قَسَمِ الوَلاءِ أَمامَ جَميعِ الحاضِرينَ وَلَيْسَ أَمامَهُ فَقَطْ . »

قاطَعَهُ هَمْدان بِلَهْفَةٍ : « وَماذا عَنْ أَحْسَنِ الفُروضِ ؟ »

« كَما قُلْتُ لَكَ . سَتُصْبِحُ مَلِكًا عَلى هَذِهِ البِلادِ وَلَكِنْ بِشَرْطِ أَنْ تَضْمَنَ سَلامَةَ الْمَلِكِ السّابِقِ وَكُلِّ الأُمَراءِ وَالوُزَراءِ وَأَرْبابِ الدَّوْلَةِ الَّذينَ عَمِلوا مَعَهُ . »

نَظَرَ هَمْدان إلى الْمَلِكِ ثُمَّ أَدارَ عَيْنَيْهِ في الآخَرينَ وَهُوَ يَقولُ بِخُيَلاءَ مَلَكِيَّةٍ امْتَزَجَتْ بِابْتِسامَةٍ طافِحَةٍ بِالنَّشْوَةِ : « أنا لَمْ أَسْعَ قَطُّ إلى كُرْسِيِّ السُّلْطانِ بِدافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ السَّطْوَةِ والحُكْمِ ، وَلكِنْ مِنْ أَجْلِ رِفْعَةِ بِلادي وَتَقَدُّمِها وَازْدِهارِها . كُرْسِيُّ السُّلْطانِ عِنْدي لَيْسَ غايَةً في حَدِّ ذاتِهِ وَإِنَّما هُوَ وَسيلَةٌ لَيْسَ إلا ؛ وَلِذَلِكَ أُعْلِنُ لَكُمْ أَنَّني أَضْمَنُ سَلامَةَ مَوْلانا الْمَلِكِ السّابِقِ وَكُلِّ رِجالِ القَصْرِ

أضْمَنُ سَلامَةَ مَوْلانا الْمَلِكِ السّابِقِ وَكُلِّ رِجالِ القَصْرِ الَّذينَ عَمِلوا مَعَهُ ، بَلْ إِنَّني سَأَنْتَقي مِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ وَلاءَهُ لي كَيْ يُصْبِحَ ساعِدي الأَيْمَنَ . »

عِنْدَئِذٍ لَوَّحَ كَبيرُ حَرَسِ الحُدودِ بِسَيْفِهِ الطَّويلِ في الهَواءِ صائِحًا في هَمْدان : « وَماذا عَنّا نَحْنُ ؟ أَيْنَ وُعودُكَ لَنا ؟ »

« أَنْتُمْ في عَيْني قَبْلَ أَيِّ إِنْسانٍ آخَر ؛ فَبِدونِكُمْ لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقِفَ مِثْلَ هَذا الْمَوْقِفِ الرّائِعِ اليَوْمَ ! »

افْتَرَشَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةُ الشُّرْفَةَ الْمَرْمَرِيَّةَ وَجُزْءًا مِنْ أَرْضِ القاعَةِ ، في حينَ دَخَلَتْ جُلْفدان لاهِثَةً وَهِيَ تُمْسِكُ بِيُمْناها كِتابًا صَغيرَ الحَجْمِ . انْحَنَتْ أَمامَ المَلِكِ ثُمَّ أَمامَ الأَميرِ بُرْهان ، وَقَدَّمَتِ الكِتابَ وَخَرَجَتْ مِنَ الغُرْفَةِ . بَدا الكِتابُ عَتيقًا لِلْغايَةِ وَقَدْ عَلَتْ غِلافَهُ صُفْرَةٌ كالِحَةٌ بَيْنَ أَصابِعِ بُرْهان الَّذي قَدَّمَهُ لِهَمْدان فَأَمْسَكَهُ بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ .

قالَ بُرْهان لِهَمْدان : « وَالآنَ افْتَحِ الكِتابَ أَيُّها الوَزيرُ الهُمامُ . »

شَرَعَ هَمْدان في فَتْحِ الكِتابِ لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ فَتَساءَلَ :

« هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ هَذا الكِتابَ لَمْ يُفْتَحْ مِنْ قَبْلُ ؟ »

« نعم . لا تَخَفْ فَالصَّفَحاتُ تَبْدو مُلْتَصِقَةً ، ولكن يُمْكِنُ فَتْحُها ، فَهِيَ لَيْسَتْ مَصْنوعَةً مِنْ حَديدٍ . »

اِنْهَمَكَ هَمْدان في فَصْلِ صَفَحاتِ الكِتاب ، وَعِنْدَما اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ وَضَعَ إصْبَعَهُ في فَمِهِ وَبَلَّ حافَتَها بِلُعابِهِ . تَهَلَّلَ وَجْهُهُ عِنْدَما فَتَحَ أَوَّلَ وَرَقَةٍ ثُمَّ الثّانِيَةَ وَالثّالِثَةَ ؛ فَقَدْ كانَ الوَرَقُ لا يَنْفَتِحُ إلا بِجُهْد . فَتَحَ هَمْدان سِتَّ وَرَقاتٍ ، وَنَظَرَ فيها فَلَمْ يَجِدْ أَيَّةَ كِتابَةٍ أَوْ أَيَّةَ عَلامَةٍ ، فَقالَ للأمير بُرْهان وَقَدْ أَوْشَكَ لُعابُهُ عَلى الجَفافِ : « ما فيهِ شَيْءٌ ، أَيُّها الحَكيمُ . »

فَقالَ بُرْهان بِثِقَة : « قَلِّبْ بَقِيَّةَ صَفَحاتِ الكِتاب ، فَلا بُدَّ أَنْ تَبْلُغَ نِهايَةَ الكِتاب فَرُبَّما عَثَرْتَ في آخِرِ صَفْحَةٍ على القَلْبِ الأَحْمَرِ فَتُصْبِح مَلِكًا في غَمْضَة عَيْنٍ ! »



واصَلَ التَّقْليبَ بِلَهْفَةٍ حَتّى بَلَغ الصَّفْحَةَ الأَخيرَةَ فَإذا بِعَيْنَيْهِ قَدْ جَحَظَتا ، وَشَفَتَيْهِ قَدِ ارْتَعَشَتا وَهُوَ يَصْرُخُ

فَرِحًا : « وَجَدْتُ القلْبَ الأَحْمَرَ ! وَجَدْتُ القَلْبَ الأحْمَرَ ! لَقَدْ أصْبَحْتُ مَلِكًا عَلى رُءوسِ الأشْهادِ !»

وَدارَ مُسْتَعْرِضًا الصَّفْحَةَ أَمامَ الجَميعِ وَهُوَ يُشيرُ بإِصْبَعِهِ الْمُرْتَعِشَةَ إلى القَلْبِ الْمَرْسومِ باللَّونِ الأحمرِ كَالدَّمِ القاني ، وَالْمَلِكُ يَنْظُرُ في ذُهولٍ إلى بُرْهان الَّذي أَضاعَ عَرْشَهُ بهَذِهِ اللُّعْبَةِ الغَبِيَّةِ وَكَأَنَّهُ مُتَواطِئٌ مَعَهُ . وَسَرى الذُّهولُ في وُجوهِ الأُمَراءِ وَالوُزَراءِ وَأَرْبابِ الدَّوْلَةِ سَرَيانَ النّارِ في الهَشيمِ ، وَتَحَوَّلَتْ نَظَراتُهُمْ إلى سِهامٍ نارِيَّةٍ اخْتَرَقَتْ وَجْهَ بُرْهان الَّذي بَدا في قِمَّةِ سَعادَتِهِ فَظَنّوا أَنَّهُ جُنَّ وَهُوَ الحَكيمُ وَالطَّبيبُ وَالفَيْلَسوفُ . أَمّا عَلى وُجوهِ الْمُتَآمِرينَ فقدْ تَأَلَّقَ إحْساسُهُمْ بِنَشْوَةِ النَّصْرِ ، وَاعْتِزازُهُمُ البالِغَ بِقائِدِهِمُ الَّذي انْتَزَعَ العَرْشَ بلا ضَرْبَةِ سَيْفٍ واحِدَةٍ ، وَلَمْ يَتَبَقَّ سِوى أَنْ يُوَزِّعَ عَلَيْهِمُ الْمَناصِبَ وَالْمَغانِمَ .

كانَتْ لَحَظاتٍ كَأَنَّها خارِجَةٌ عَنْ إطارِ الزَّمَنِ . لَكِنَّ الزَّمَنَ نَفْسَهُ سَرْعانَ ما طَواها عِنْدَما تَوَقَّفَ هَمْدان عَنِ الدَّوَرانِ وَالتَّهْليلِ بالصَّفْحَةِ الأخيرَةِ وَالقَلْبِ الدَّمَوِيِّ المرْسومِ عَلَيْها ، وسَرْعانَ ما تَحَوَّلَ التَّهْليلُ إلى صُراخٍ

وَعَويلٍ ، وَسَقَطَ الكتابُ العَتيقُ مِنْ يَدِهِ عَلى الأَرْضِ ثُمَّ ارْتَمَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَتَلَوَّى مِنَ الأَلَمِ ، وَالجَميعُ يُتابِعونَهُ بِعُيونٍ سَقَطَتْ عَلى الأَرْضِ مِنْ مَحاجِرِها ، في حينَ جَلَسَ بُرْهان القُرْفُصاءَ إلى جوارِهِ ، فَظَنّوا أَنَّهُ سَيُسْعِفُهُ لَكِنَّهُمْ فوجِئوا بِهِ وَهُوَ يَقولُ لِهَمْدان الَّذي كانَ يَصْرُخُ وَيَتَلَوَّى مَعَ بَعْضِ الفَقاقيعِ البَيْضاءِ الَّتي تَتَساقَطُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ الشّاحِبَتَيْنِ الْمُرْتَعِشَتَيْنِ : « في اللَّحْظَةِ الَّتي ظَنَنْتَ فيها أَنَّ الدُّنْيا قَدْ دانَتْ لَكَ وَأَنَّكَ تَرَبَّعْتَ عَلى كُرْسِيِّ السُّلْطانِ ، تَسَلَّلَتْ حَياتُكَ نَفْسُها مِنْ بَيْنِ أَصابِعِكَ كَالرِّمالِ في يَوْمٍ عاصِفٍ . »

عَوَى هَمْدان كَالذِّئْبِ الذَّبيحِ :

« ماذا فَعَلْتَ بي ؟ أَنْقِذْني ، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ، فَأَنا لا أُريدُ سِوى أَنْ أَعيشَ كَإِنْسانٍ عادِيٍّ . لا أُريدُ مَجْدًا أَوْ جاهًا أَوْ سُلْطانًا . كُلُّ ما أُريدُهُ أَنْ أَعيشَ . »

« لَقَدْ نَدِمْتَ ساعَةَ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ . أَرَدْتَ صُنْعَ مَجْزَرَةٍ كَيْ تَصِلَ إِلى كُرْسِيِّ السُّلْطانِ ، بَعْدَ أَنْ فَشِلْتَ في الزَّواجِ مِنَ الأَميرَةِ ، فَكانَ لا بُدَّ مِنَ التَّضْحِيَةِ بِكَ حَتّى يَعيشَ

بَلَدُنا آمِنًا . »

خَفَتَتْ صَرَخاتُ هَمْدان وَأَصْبَحَتْ آهاتٍ مُتَقَطِّعَةً وَهُوَ يَتَساءَلُ : « ماذا فَعَلْتَ بي ؟ ماذا فَعَلْتَ بي ؟»

« الكتابُ الَّذي أَرَدْتَ أَنْ تَحْصُلَ بِهِ عَلى كُرْسِيّ السُّلْطانِ ، وَبَلَّلْتَهُ بِلُعابك حَتّى فَتَحْتَ أَوْراقَهُ عَنْوَةً ، كانَ صَمغُهُ سامًا ، سَرَى في فَمِكَ وَدَمِكَ كَيْ يَتَخَلَّصَ النّاسُ مِنْ شُرورِكَ وَسُمومِكَ . »

خَفَتَتْ آهاتُ هَمْدان الَّذي هَمَدَ جِسْمُهُ تَمامًا ، ثُمَّ شَهَقَ شَهْقَةً لَفَظَ مَعَها نَفَسَهُ الأَخيرَ ، وَإِذا بِالجُنودِ الْمُتَآمِرينَ يُلْقونَ بِسُيوفِهِمْ ويُعْلِنونَ تَوْبَتَهُمْ وَ وَلاءَهُمْ لِلْمَلِكِ .

في اللَّحْظَةِ نَفْسِها دَخَلَ مُساعِدُ هَمْدان لاهِثًا وَخَلْفَهُ قائِدُ الجَيْشِ حَيْثُ أَدَّيا التَّحِيَّةَ العَسْكَرِيَّةَ ، ثُمَّ أَشارَ القائِدُ لِمُساعِدِ هَمْدان قائِلاً لِلْمَلِكِ : « لَوْلا بُطولَةُ هَذا الرَّجُلِ وَمُخاطَرَتُهُ بِحَياتِهِ - لَما كانَ في اسْتِطاعَتِنا أَنْ نَأْتِيَ في الوَقْتِ الْمُناسِبِ ، خاصَّةً بَعْدَ أَنِ اسْتَطاعوا التَّغَلُّبَ عَلى

حَرَسِ القَصْرِ ! »

قَرَّرَ الْمَلِكُ في الحالِ تَعْيينَ قائِدِ الجَيْشِ وَزيرًا أَوَّلَ في القَصْرِ ، وَتَعْيينَ مُساعِدِ هَمْدان مَكانَهُ في قِيادَةِ الجَيْشِ ، ثُمَّ نَظَرَ إلى الحَكيم بُرْهان وَقالَ لَهُ :

« وَأَنْتَ أَيُّها الأَميرُ وَالحَكيمُ العَظيمُ بُرْهان ، إنَّني أخِرُّ ساجِدًا للهِ ، الْعَلِيِّ القَدير ؛ لأَنَّهُ مَنَحَني ابْنًا حَبيبًا وَحَكيمًا جَعَلَني أَطْمَئِنُّ إلى مُسْتَقْبَلِ الْمَمْلَكَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَرُبَّ ضارَّةٍ نافِعَةٌ ؛ فَقَد اكْتَشَفْنا فيهِ قائِدًا سِياسِيًّا مُحَنَّكًا ، يَحْمِلُ في جَعْبَتِهِ الكَثيرَ مِنَ الْمُفاجآتِ الَّتي لا تَخْطُرُ عَلى بالِ أَحَدٍ ، وَلَوْلاهُ اليَوْمَ لَوَقَعَت الْمَمْلَكَةُ كُلُّها في مُواجَهَةِ إعْصارٍ كانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُدَمِّرَها تَمامًا . وَالآنَ أَقيموا الأَفْراحَ وَاللَّياليَ المِلاحَ ابْتِهاجًا بِنَجاتِنا جَميعًا مِنَ الطّوفانِ ، وَبَعْدَها نَنْهَمِكُ جَميعًا في العَمَلِ مِنْ أَجْلِ رِفْعَةِ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ وَازْدِهارِها . »

وَبِحُلولِ مَساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ الْمَشْهودِ غَرِقَ القَصْرُ الْمَلَكِيُّ في أَضْواءِ الشُّموعِ الرّاقِصَةِ ، وَالقَناديلِ

الْمُتَوَهِّجَةِ ، وَالْمَوائِد الْمُمْتَدَّةِ بِأَشْهى أَطايِب الطَّعام وَالشَّراب . كانَتِ الحَياةُ قَدْ أَصابَها العَفَنُ ، لَكِنَّها - كَعادَتِها - اسْتَطاعَتْ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْهُ وَأَنْ تُجَدِّدَ نَفْسَها بِنَفْسِها . فَفي النِّهايَةِ لا يَصِحُّ إلا الصَّحيحُ .

١٦

تَسَلَّلَ شُعاعُ الفَجْرِ في اسْتِحْياءٍ مِنْ شُرْفَةِ قَصْرِ الْمَلِكِ شَهْريار ، الَّذي كانَ يَحْبِسُ أَنْفاسَهُ وَشَهْرزاد تَقُصُّ عَلَيْهِ قِصَّةَ الْمَلِك يونان وَ وَزيرِهِ هَمْدان وَ وَلِيِّ عَهْدِهِ الأمير الحَكيم بُرْهان . لَمْ يَكُنْ يُريدُها أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ الْمُثيرَةِ . لَكِنْ لَيْسَ باليَد حيلَةٌ . سَأَلَها عَنْ قِصَّةِ اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ فَأَجابَتْهُ شَهْرزاد بِمُنْتَهى الثِّقَةِ وَاليَقين :

« إنَّني ، يا مَوْلايَ ، لا أَقُصُّ عَلَيْكَ هَذِهِ القِصَصَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي ، فَهِيَ لا تَأْتي عَفْوَ الخاطِرِ ، بَلْ أَقْضي مُعْظَمَ نَهار اليَوْم التّالي في التَّفْكيرِ وَنَسْجِ قِصَّةِ اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ وَهَكَذا . »

« أَ هَذا يَعْني ، يا شَهْرزاد ، أَنَّكِ لا تَنامينَ أبدًا ، تَفْكيرٌ

في النَّهار وَحَكْيٌ في اللَّيْلِ ؟»

« لا تَعْبَأْ ، يا مَوْلايَ ، فَكُلُّنا في خِدْمَتِكَ . »

« مِنْ حَقِّكِ أنْ تَنالَيْ نَصيبَكِ مِنَ النَّوْمِ وَالرّاحَةِ . »

« الحياةُ غالِيَةٌ ، يا مَوْلايَ ، وَلا بُدَّ أنْ أجَهِّزَ قِصَّةً جَديدَةً كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَكَما يَقولُ الْمَثَلُ الشَّعْبِيُّ : يا روح ما بَعْدك روح !»

أَدْرَكَ شَهريار مَغْزَى كَلامِها ، وَكانَ عَلى وَشْكِ أَنْ يُصارِحَها بِأَنَّ جَوْهَرَةً ثَمينَةً مِثْلَها لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ قَدْ خُلِقَتْ لِتُقْتَلَ ، لَكِنَّهُ تَراجَعَ في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ ؛ خَشْيَةَ أنْ تَفْقِدَ الحافِزَ الَّذي يَدْفَعُها لابْتِكار القِصَص الَّتي أضاءَتْ لَياليهِ وَطَرَدَتْ عَنْهُ الْمَلَلَ وَالضِّيقَ وَالخَوْفَ مِنَ الْمَجْهولِ .

وعِنْدَئِذٍ أَدْرَكَ شَهْرزاد الصَّباحُ ، فَسَكَتَتْ عَنِ الكَلامِ الْمُباحِ .